

# المساقفة

بقلم « مي »

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

يطلب من

مكتبة الهلال

بشاعة الضجالة برصة

# المساقفة

بقلم « مي »

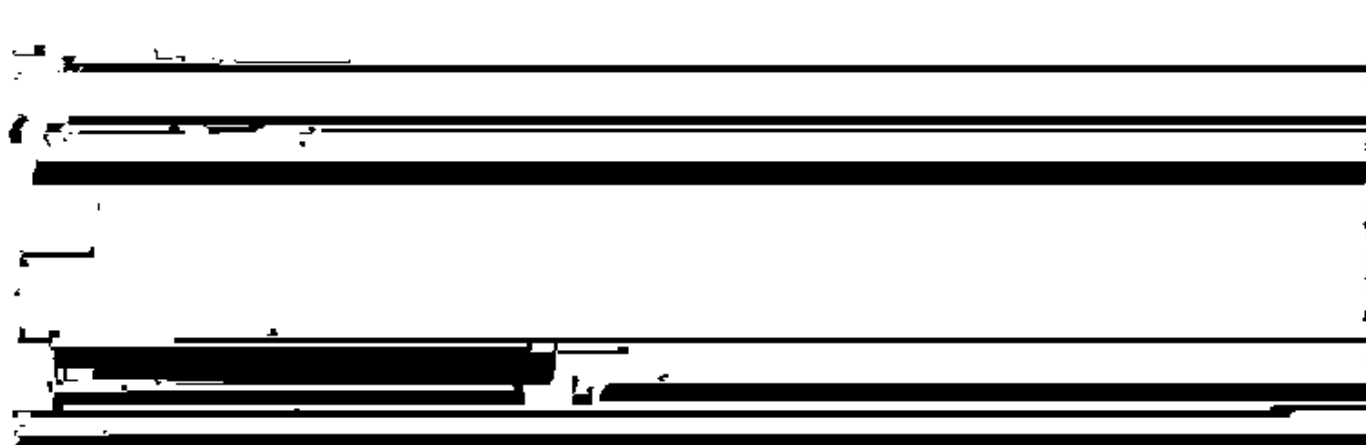
حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

يطلب من

مكتبة الزمان

بشاعة الضجالة برصد







## تمهيد

أما رأيت الثريَّ تنهب الأرض سيارتهُ كان السعد أقام  
من الأبهة والرواء هالةً بينه وبين سواه، وهناك في الزاوية  
يدبُ المعدم ويعتفي متأوهاً كأنه في تمرُّغه حشرة خبيثة  
تأنف الأرض مسهباً وتمقت انعكاس ظلها ؟

أو ما رأيت الحسناء ترتدي الثياب الفاخرة على أحدث  
هندام ، وفي عنقها ومعصمها جواهر توازي ثروة  
وآصوّرُ نعيماً — أما رأيتهَا تمرُّ رشيقة معطرة أمام امرأة  
رثة الثوب تحمل طفلاً هو آية ذلها في الغد كما هي علة  
ذله اليوم ، والذباب يأكل من مآقيها ووجنتيها ما لا  
تستطيع ازالته لانها فقيرة حتى من الماء الطهور ؟

قد تخفي مظاهر البؤس مالا وعقاراً وقد لا تكون  
دلائل العزّ سوى نخفخةٍ واستهتار غرور . على ان  
المشهرين يمثلان من سلم الكفاف أعلى الدرجات وأدنى  
الدركات ، وبينهما تتحاذى الرتب على اختلافها بما يلزم  
ذويها من عوزٍ منوّع واحتياج لجوج

ازاء هذين النقيضين حنَّ الشعوريون الى اخوة الروح  
تبدو بين طبقات المجتمع ، وعمد المفكرون الى المقابلة  
والاستنتاج ، وقام المحرومون يصرُّون صريحا ، وانبرى  
النظريون يعيّنون حقوق الناس على الناس ، ومثّل الشاعرُ  
الحماسيُّ دورهُ فأرسل « هاني » زفرات كأنها المتفجرات  
هولاً وتحريضاً حيثُ هتف « ملعون هو الاله ، اله  
السعداء . . ملعون هو الملك ملك الاغنياء . . وملعون  
هو الوطن المجازف بينيه ! »

وليس جميع هؤلاء ليسلمون بان شكائتهم تعارض نُظم  
الطبيعة ، بل هم يتسلحون بالحجة والبرهان مشيرين الى  
الشمس تسكب النور والحرارة على الاشرار والصالحين .  
ويستشهدون بالهواء يسدي الحياة الى الحيوان والانسان  
ولا يكون على الجماد ضئيلاً . ويدأون الى الارض تمتشُّ  
في حضنها المعادن وتكلاً المرعى لكل ذي نسمة يرتعي .  
ويومئون الى منبسطات البحار تضم مختلف السمك والوحش  
المائي من كل فصيلةٍ وحجم ولون . ويدكرون اللحد يحوي

الموتى قاطبةً على نمطٍ واحدٍ يدفع بهم الى الانحلال فريسةً  
والى التحوُّل مادةً . فاذا أُجزلت الطبيعة الهبات ودعت  
جميع بنبيها الى امتصاص ثديها المدرار فأنى للكبرياء أن  
تخلق التمايز والتفاضل ، وتجعل بين البشر فروقاً وسدوداً  
فتشلّ عضواً لتقوّي عضواً ، وتحرم قوماً لتمدّع قوماً ؟  
هم يتساءلون عما حلّ هذا الجور المرهق ، ويصيحون  
بقوة انفعالاتهم واحتياجاتهم : المساواة ! إنما نطلب  
المساواة !

ان لم يتمرّد العبيد بهذه الكلمة وبمعناها العصري فانما  
التوق المبهم اليها هو الذي اضطرهم الى تكسير القيود ،  
والخروج على ساداتهم مرة بعد أخرى في تعاقب العصور  
القديمة ، حتى باتت أثينا وروما من أولئك الثورات في  
خطرٍ عظيم

هي التي دمدت في نفوس عشرين ألفاً من العبيد أن  
يفزعوا الى الاسبارطيين يوم احتلّوا جانباً من بلاد الاغريق  
في الحرب البيلوبونزية ، طمعاً في الحصول إن لم يكن على



تحرير تام فعلي تحسين مبين

هي التي نفثت العصيان في قلوب عبيد مناجم اللور يوم  
وقوت سواعدهم للفتك بجرأسهم والمسيطرين عليهم ،  
فاستولوا على حصن سونيوم وانزلوا في اتكا الجميلة  
خراباً ودماراً

بالهامها انقلب اسبارطقس التراقي زعيماً لاخوانه  
العبيد في روما فخارب على رأسهم جيوش الدولة النظامية  
يقودها الكبراء والنبلاء ، ولم يكف عن النضال الا  
بسقوطه صريعاً بطعنة أرسلتها يد كراسس أحد أعضاء  
الحكومة الثلاثية العليا . ثم أي قوة أقامت دولة المماليك  
في مصر ان لم يكن التطلع الى المساواة ؟

لأجلها شبت الثورة الفرنسية وانبرت تعلن  
للإنسان حقوقه المدنية المرتكزة على الحقوق الطبيعية ،  
فأثبتت في مطلع بيانها بنداً أول يشاركها اليوم فيه العالم  
المتمدن ، وهو ان « الناس يولدون ويظلون متساوين أحراراً  
إزاء القانون » . فحذفت بهذا البند نظام الاقطاع القائم على

## تفاوت الحقوق والواجبات

وباسمها اعتصمت المرأة فنهضت من تحت قدم السيد  
 الساحقة ووقفت عالية الجبين ازاء مسالك الحياة وأعمالها .  
 وفي سبيلها وضع ماركس كتابه الشهير صارخاً « اتحدوا  
 يا عمال العالم ! » فتبارى الزعماء في تكوين الاحزاب ، وسنّ  
 القوانين ، ونشر اللوائح ، واقامة المؤتمرات الثلاثة لاتحاد  
 العمال الدولي . وهي هي التي هزّت روسيا من أقصاها الى  
 أقصاها وأضرمت تحت سمائها شعلة الثورة المدهمة

اذكرها يتزاحم حولك جمهور دعايتها وكهنتها : ماركس ،  
 لاسال ، انجلس ، برودن ، باكونين ، كروبوتكن ، وعشرات  
 غيرهم يدحضون مذهب دارون وهوبس القائل بتنازع  
 البقاء بمذهب التضامن والتعاون البادي بين جميع  
 الموجودات

بل اذكرها يضجّ حولك هتاف الشعوب ، وصراخ  
 المراتب الاجتماعية ، وأنين المحتاجين والمتوجعين . هؤلاء ،  
 لا يفقهون معناها تماماً ويزعمون انها مشاركة الغني بفناها ،

والوجيه بوجاهته ، والمنعم بنعمته . وحسبهم انها تخفي عنهم  
 شبح غدٍ غدار لا يضمن لهم ولذويهم الغذاء . أو يرون  
 فيها انفراجاً معتدلاً لضيقاتهم ، كذلك العامل الانجليزي  
 القائل « أتريد أن تعرف ما هي المساواة ؟ عشر شلنات في  
 النهار ، ياسيدي »

تكاد تكون المشا كل الدولية الأعيب اذا ما قوبلت  
 بالمشاكل الاقتصادية التي يسمونها اجتماعية . ومشكلة  
 « المساواة » هي الآن أم المشاكل ، واسمها يطن من  
 كل صوب

وانها مع الحرية والاخاء تهز نفسي : وقد لمستُها منذ  
 ان كان لي نفس تتحرك . غير اني وصلت الى نقطة أودُّ  
 عندها تحليل كل شعور وكل تأثير

ما هي المساواة ، وأين هي ، وهل هي ممكنة ؟ هذا  
 ما أرغب في استجلائه في الفصول الآتية دون اندفاع ولا  
 تحيز ، بل باخلاص من شككت من جميع قواها النفسية  
 والادراكية محكمة « محلفين » يستعرضون خلاصة ما تقوله  
 الطبيعة والعلم والتاريخ ليثبتوا حكماً يروونه صادقاً عادلاً

## ١

## الطبقات الاجتماعية

أصل الخليفة في الميثولوجية الهندية ان بيضة الذهب الحاملة برهما كانت تطوف على وجه القمر عندما انطلق منها الاله ، فانفلقت قشرتها فلتقتين كوّنت إحداهما السماء وكانت الارض من الاخرى . ونشر برهما الاثير بين الارض والسماء ، ثم خلق السكواكب والنبات والاشجار والحيوان فتهيأت الارض لسكنى النوع البشري . اذ ذاك سحب من رأسه رجلاً يدعى برهمانا وسماه « الفيدا » أو كتب الهند المقدسة مستودع الحقيقة الخالدة . ومن برهمانا هذا ولد البراهمة الذين عهد اليهم في نشر الديانة وتعزيز أصولها . ثم أخرج برهما من ذراعه اليمنى محارباً يدافع عن الكاهن ويبقيه منيع الحوزة محمي الزمار . واستل من نخذه رجلاً ثالثاً هو الفلاح الذي يهيئ للجندي ولاكاهن الغذاء ، والتاجر

الذي يمهّد امامهما وسائل الحياة ويضمن لهما موارد الرزق والثروة . وأخيراً انتزع من قدمه المقدسة رجلاً رابعاً هو أبو الصنائع وزعيم طبقة العامالين الآخرين . ومن هذه المخلوقات الاربعة المخرجة من جسم برهما تسلسلت شعوب الهند بمراتبها الاجتماعية . تضاف اليها طبقة الاسافل المتشردين ( وما هي إلا حثالة الطبقات الاخرى ) المختلفة عن أبناء برهما بما توعزّه من رعب واحتقار لأنها خلاصة القبح والتعاسة

لقد ارتفعت قيمة الفكر الهندي في هذا العصر ارتفاعاً كبيراً بما يرمي اليه من حقيقة علمية فلسفية وراء أسلوبه الشمري ومظاهره الخيالية . ومغزى هذا الرمز الى الخليفة ان البشر وان كانوا أبناء إله واحد ، مخلوقين على صورة واحدة يستمدّون الحياة من أصل واحد ، ويعجن جسمهم من طينة واحدة تماثل بها احتياجاتهم ورغباتهم — الا انهم في الوقت نفسه أسرى التنوع تكييفاً ، أسرى التنوع قهراً . يقيدهم هذا التنوع الأولي فيحبو كل فردٍ

وكل طائفةٍ منهم ، كفاءةً تختلف عن كفاءة الآخرين ،  
ويودعونهم براعةً وحذقاً يتساويان قوة عند الجميع وان تميزاً  
مظهراً طبق العمل المطلوب

وهل الاجتماع من انتظام لولا تنوع الطبقات وتنوع  
الكفاءات ؟ وهل تبدو طلائع المدنية بلا تقسيم العمل طبقاً  
لقابلية أفراد وجماعات ينجحون في فنٍّ ويرسبون في فنٍّ  
آخر ؟ وأننى لنا العلماء والفلاسفة والفنانون والابطال  
والاختصاصيون في كل صنعة لولا التميز والاختلاف ؟ فلو  
أبدنا التنوع في أصوات الخليقة بحذف درجات السلم الموسيقي  
السبع أبدنا فن الموسيقى بحذفه وما بقى لحاسة سمعنا  
سوى نغمة تطرد الاستمرار على وتيرة فردة • ولو  
لأشينا الألوان السبعة من التحليل الطيفي فقد الشعاع  
خواصه وانتهت بنا واحدة اللون الى الظلام • ولكن في  
الظلام نفسه درجات لأنه محبوبك الطرفين بالشروق  
والغروب • أليس ان الشفق غير الغلس ، وان هذا وذاك  
غير انتصاف الليل الادهم ؟

ليس امامنا سوى الكثرة والتعدد عند ما نفتتح أنظارنا على الكون فنرى الكواكب متألقة في فضاءٍ محتويها ، ونرى الماء واليابسة ، والجبال والوهاد ، والاشجار والصخور ، والمروج المخصبات والصحاري القاحلات ، فضلاً عن صنوف الحيوان . ثم لا نلبث ان نردّ جميع هذه المظاهر الى أصول أو أنواع كبرى ثلاثة هي النوع الجمادي ، والنوع النباتي ، والنوع الحيواني الذي يتناهي ارتقاء ودقة في الانسان المدرك المرغم على تمثيل دوره في مأساة الوجود ، لانه جزء من هذا الوجود وتسري عليه جميع نواميسه ان راضياً وان كارهاً

وكما ان الحياة الجمادية في دورها الهولي كتلة عظمى لم ينمقها التكيف صوراً وأشكالاً كذلك البشر في همجيتهم كلٌّ متماثل لا تنظمهم المراتب ولا كبير منهم ولا صغير . وهذا شأن بعض القبائل المتوحشة في أفريقيا وبين هنود أمريكا الى أيامنا . هم يعيشون جماعات صغيرة ولا شاغل لهم غير ما يشغل الحيوان الاعجم . إلا ان الكثير من

فصائل الحيوان فروقاً اجتماعية : فعندها الملكية المطلقة،  
والارستقراطية، وثورية تتطلع الى الهدم، وغيرها يطالب  
للمساواة، وبالجملة فان قضيتها الاجتماعية تكادُ تشبه مثيلتها  
عند النوع البشري . وقد تسهل مراقبة هذه الفروق بين  
حيوان المنازل، كالنمل مثلاً الذي يظهر عنده تقسيم العمل  
ظهوراً تاماً . فمن أعضائه العامل المنتج ، ومنها المحارب  
المدافع ، ومنها العبد الرقيق . وبعض العشائر تغزو بعضها  
فتقهرها وتستعبدوها ، أما تعاملها برفق ولين

\*\*\*

ابتداءً دورُ تكوين الشعوب بانتشارها قبائل يتقارب  
منها الجوار بتقارب الاصل ، ولكل قبيلة وسائلها الحيوية  
في موارد موطنها الطبيعية، التي هي بدورها ربّت في أعضاء  
القبيلة ذكاء ومهارة موافقين لاستخدامها . فاصطنعوا  
لأنفسهم تلك الادوات الحجرية والفخارية ، واخترعوا  
القوس والنشاب، وآلات حرث الارض وطريقة فلاحتها،  
واكتشفوا النار ووسيلة اضرارها . وكانوا يشتركون في



استعمال هذه الادوات والآلات عند الحاجة لانها ملك  
الجميع الذي كان يعمل له كل فرد تحت مراقبة زعماء أكفاء  
ويُضمن له مقابل تعب السكن والقوت والكساء في  
حالتها الاولى . فينجلي من هذا ان الاشتراكية سبقت  
كل نظام آخر في حياة البشر . ومع ان هذه الاشتراكية  
مشوبة بخلل كثير الا انها حسنة بالنظر الى زمنها، ولانها  
اول خطوة في عالم النظام والتدريب . وقد لاحت فيها  
اول بارقة من بوارق النبوغ الذي سيكشف أسرار  
الطبيعة ويتغلب على عناصرها في العصور التالية

تطوّرت حياة القبائل قليلاً ونمت مدارك الافراد  
فيها فاتجهت تدريجياً نحو غاية واحدة وهم لا يعلمون . فتلك  
التي قطنت المروج اقتنت الغنم والخيول بعد تأنيسها، ونظمت  
القطعان الانتفاع بخيراتها من حليب ومايتأتى منه في حياتها،  
ومن جلدٍ وصوف بعد ان تنفق، فتوفر لديها من ذلك ثروة  
طائلة . فطمعت في توسيع فلاحتها طلباً لثروة أعظم ، وكان  
ذلك سبباً لاختلاف القبائل فيما بينها على مسألة الحدود .

فقامت المناوشات والمعارك ، وانتصر هذا واندحر ذاك ،  
فشعر الغالب لأوّل مرة بنشوة « السيادة » ، ونُهبت القبيلة  
المغلوبة وضمّ أعضاؤها الى القبيلة الغالبة . الاّ أنهم كانوا  
يحسّون بفرق بين الجماعتين ، وبكآبة مقابلة لنشوة « السائد »  
ولم تكن تلك سوى كآبة « المسود » . وهذا منشأ  
الاولوقراطية والرقّ

وجرى مثل ذلك تقريباً في الاودية المخصبة حيث  
عنيت القبائل بزراعة صنوف النبات والاشجار . والخوف  
من غارات القبائل المجاورة دفعهم الى انتخاب زعماء  
حريين يهيئون خطوط الدفاع ازاء هجمات العدو .  
فارتفع هؤلاء الزعماء ، مع الوقت ، الى درجة سادة يسبّرون  
الفلاحين ويتقاضونهم بدل الارض التي يستغلونها ،  
 ويفرضون عليهم الضرائب . الى أن أنشأوا الرقّ في  
أُملاكهم من سلايب العدو وغنائم الحروب

كذلك عند منصبّ الانهار . فان القرصان استوطنوا  
الشواطىء ليسهلوا العلاقات بين الفلاحين وقبائل الجبال ،

ولما نبينوا رعب الفلاحين ودرغبتهم في صدّ الغارات  
عن حياتهم الهادئة نظموا قوة حربية وانقضوا كالساعة  
على الضعفاء فسادوهم : وانقلب الأحرار عبيداً

تمّ ما يشبه هذا بين القبائل القديمة يقودها جماعات  
وأفراداً ذلك الشعور العريق في قلب الإنسان ، وهو الطمع  
في السيادة والسعي إلى التفوّق . وسرعان ما عثروا على  
عماد السيادة وهو الملك ، أو رأس المال كما يسمونه بلغة  
هذا العصر . وهذا الملك لم يكن ليتأتى إلا من الذكاء  
والمهارة ، أو الامتياز بعسفة أو كفاءة خاصة . فآخذوا  
بممتلكون الأراضي ويحشدون الثروة من المواد المنظورة  
إليها كثرة في ذلك الحين . وكان ذلك الفصل الأول من  
تاريخ الاقتصاد البشري الدائر كله حول ذلك المحور  
الرهيّب الذي يدعى الملك . فالحصول على الملك والاحتفاظ  
به من جهة ، والرغبة في نزعهِ من جهة أخرى سببت هذا  
العراك المالي والاجتماعي الذي لا ينتهي . فمكوّن  
الارستقراطية والعبودية ، وسبب المجازر والفظائع ،

ولأجله شبت الحروب، ونشبت الثورات، ودكت الحصون  
ودمرت أجمال آثار العمران. وتشكلت الأحزاب العديدة.  
فهذه ديمقراطية، وهذه جمهورية. وتلك اشتراكية، وغيرها  
فوضوية. ومنها القائل بتمتع الفرد بأملكه، ومنها المرتئي  
جمع الملك مشاعاً للجميع، ومنها الضاحك من كل حزب  
بتفجير القنابل وهدم الصروح وإزهاق الأرواح. وقد أدَّى  
التراحم والتقاتل إلى انتشار الأقوام فسعوا في الأرض  
يروّجون تجارتهم ويكثرون أرباحهم ليحفظوا لهم المكانة  
والوجاهة في جماعتهم. وتوطد نظام الوراثة لأن السيد  
العظيم كان يشرك أولاده في إدارة الأملاك. فيتمرن عادة  
الولد البكر على فن الإدارة والحكم وينتهي إليه حق  
الارث الأكبر



وبدهي أن الأب كان يعامل أفراد عيلته كعامله  
زعيمه له، فإن ظلمه ظلمهم وإن أنصفه كان لهم منصفاً.  
وكذا تكونت الأرستقراطية في داخل الأسرة في حين

كانت تتكون في الجماعة أو في الدولة. فكانت الارستقراطية أو الاشراف يشمل عميد الاسرة والديه، ويليهم أعضاء الاسرة الآخرون، وتلي هذه درجة الخدم أحراراً وعبداً. فهناك بلاد اليونان مثلاً في زمنها الاقدم، أي العهد الملكي المطلق. حيث تجد طبقة مؤلفة من جميع رؤساء الأسر، وهم في الغالب نبلاء كالملك نفسه، وينتسبون للآلهة مثله ويحملون لقب « ملك ». لذلك يذكر هو ميرس ملوكا كثيرين في مدينة واحدة، يجتمعون لدى الملك ليسدوا اليه النصيح في شؤون الدولة أو ليسئلواه إرادتهم. وكانت الطبقة الثانية من ذوي القربى لاولئك الزعماء، وهم ارستقراطيون ولادة وحقوقاً، يملكون الاراضي أحراراً أو يتمتعون بنتائج اراضي الاسرة المشتركة. وإن لم يكونوا يحضرون اجتماع الملوك فانهم كانوا أعضاء جمعية أبناء الوطن العمومية. وخضوعهم الوحيد في امتثالهم لكبير الاسرة بينا هذا لم يكن لتمثيل لغير الملك. وتؤلف الطبقة الثالثة من خدم البيت المنقسمين إلى عبيد وإلى معتوقين، وعدد

هذه الطبقة قليل لأن العمل اليدوي لم يكن محترماً ، ولم يكن أبناء « الملوك » ليرفعوا عن فلاحه الارض ورعي المواشي . وكان هناك طبقة أخرى تحوي من لم يكن يخص أسرة كبرى من أهل الصنائع ، الدنيا والعمال والشحاذين ، وقطاع الطرق وأمثالهم

وتعمّنت مع الزمن الفروق الاجتماعية واكتسبت كل من الطبقات صفات تُنسبُ إليها وعيوباً خاصة بها . وتجمّرت الطبقات العليا في سماواتها الوهمية وحسبت نفسها من طينةٍ مختلفة عن طينة الآخرين ، لها من ألقابها وثروتها وامتيازاتها ما يفتح لها أبواب الالوهية على مصراعيها . ونما الإدراك ونور الشخصية في الطبقات الأخرى شيئاً فشيئاً حتى وصلنا إلى حيث نحن اليوم . إذ لا بدّ بين البشر من تبادل المنفعة والتضحية : فإذا انتفع قوم دون أن يضحوا شيئاً كانوا مغتصبين ظالمين ، وإذا كانوا كثيري التفادي قليلي الانتفاع كانوا مظلومين

مضمومي الحقوق . وأن كنت المصلحة الذاتية وراء  
جميع الاعمال فهذه المصلحة ، أو الانانية ، موجودة  
في جميع أجزاء الكون كأنها عنصر جوهري لحفظ  
الوجود

إن النوع البشري وإن امتاز عن الطبيعة المحسوسة  
بطبيعته الادراكية ، والاخلاقية ، والروحية فهو يظل  
مربوطاً بها بجسمه واحتياجاته المادية ، خاضعاً لجميع تحطمها  
وفي ميوله ميول وحشياً : فهذا قرد ، وذلك ثعلب ،  
وذلك عقرب ، والآخر ثعبان . وأما التنوع بين الطبقات ،  
وبين الافراد ، وبين مظاهر الطبيعة فأصلي ولولاه  
لما كانت الخليفة . وأرجح ان أفلاطون يوم كتب  
« جمهوريته » ضرب صفحاً عن هذه الحقيقة التي  
لا أدري كيف استطاع إغفالها

لقد طال تأمل روسو في حالة البداوة الأولى ،  
وقام هو وأنباعه ينادون بالعودة اليها لتحصل الانسانية  
على الهناء المفقود ، وترنع في بحبوحة السلام

والحرية . وقد نسوا أن الهمجي مستعبدٌ بجهله الفادح وأن له من الخرافات سجنًا لعقله ، ومن الاوهام حجابًا لروحه . فهو وإن كان حرًا حرية نسبية من حيث علاقته بأمثاله وبقناعاته — التي لا يمكن أن تدوم أكثر من زمنٍ ما — فهو أسير أخطأ أنواع العبودية وأخطرها . وهيهات الرجوع إلى الماضي ! إذ أن عودة النظام الشمسي المندفع بسياراته وأقماره نحو النجمة الكبرى من كوكبة الشلياق — قلت أن عودته إلى حيث كان منذ مائة ألف سنة توازي في نظام الكون تجريد النوع البشري مما اكتسبه بالالم والخبرة والبطش خلال تحدر الدهور . خلفنا قوة نجهلها وتتجاهلنا ، هي قوة الحركة الدائمة في جميع مناطق الحياة ، تدفع بنا أبدأً إلى الامام فنسمى سيرنا ارتقاءً . وقد يكون الارتقاء المزعوم تقهقرًا في نقطٍ شتى على أن ما لا مهرب منه هو السير المرغم ، هو التحرك المتواصل ، هو الاستطراد الذي لا راحة منه أمام القبر ولا وراءه



يتعذر علينا فهم ما هو « الوراثة » وما هو « الامام »  
 في معاني المسكان والزمان والذهن . ورغم ذلك يمكن القول  
 أن اتجاه التاريخ البشري بمعنى التقدم والتحسين وإن  
 كثرت حركات الرجعية والولائية . « إلى الامام ولو على  
 الجثث ! » ليست كلمة حماسة شعرية قالها غوتي الالماني  
 فحسب وإنما هي صوت الخليقة القاهر ، هي صوت توالي  
 الاشياء وتناسخ الموجودات . هي انبثاق الحركات من  
 الحركات ، والذري من الذري ، والانظمة من الانظمة  
 لا بدءاً من تنوع الصور وتعدد الطبقات . فلو لا  
 التنوع والتعدد ما كانت المدنية ولا كان الوجود الحسي .  
 ولو لم يكن للفروق من فضل سوى شحذ العزائم ،  
 وإزهاق القوى ، والتسابق إلى الاولوية لكفى لنقلها  
 محاولين عبورها بما أوتينا من عزم وكفاءة . والفوز  
 الاصلح دواماً

## ٢

## الارستقراطية

لو كان هذا البحث تاريخياً لكنتُ بدأتُ بالكلام على الملكية ارستقراطية الارستقراطية على نوع ما ، أو أفضلية الافضلية . لا سيما الملكية التيقراطية أي المستمدة سلطتها من الله . فاستنجدتُ بالاساطير التي هي سجل الانتقال من واقع مجهولٍ مأثور إلى واقع مزعوم منشورٍ يقبله من أهل السذاجة من قبل واقتنع ، ويكتفي الآخرون بالتمويه والمحاباة . استنجدتُ بها لطلب جرثومة تلك الأسر الشاهانية الجلي ، فاشيتها في نشأتها التدريجية سائدة على العائلة ، فالقبيلة ، فالمجتمع ، فالامة بالقوة البدنية أو الفكرية ، أو التديرية ، حتى يمدّها متلاحق الظفر بمطامع تتمددى أفرادها العصامين إلى سلالة المستقبل . أمّا والناموس الكونيّ ناموس بقاء الافضل ، يستخدم

ولا يُستخدَمُ في ضمانة الافضلية لتلك السلالة ، فلا بدّ من صيانتها دون منافسة المزاكين ولا بدّ أن تُملأ قبل الرماء الكنائن . ومن ثمّ التذرّع بأقوى البواعث النفسية من عاطفة دينية وخشية ما وراء المنظور . من ثمّ استجارة الملك بالدين والدين بالملك لتبادل المنفعة ، فيصبح الحاكم حامي حمى العقائد ورافع منار الفضائل ، ويصبح الكاهن حامل لواء السلطة الفردية وأوّل شاهد بأنها آتية من الله . ولا يطول حتى تستهوى البدعة ملفقيها . وهل من عجب ما دام الاستهواء الذاتي شرطاً أساسياً للاستهواء الغيري ؟ فلا يستفز الخطيب حماسة إلاّ عند تحمسه ، ولا يحدث الكاتب تأثيراً إلاّ بعامل تأثره . ومن ذا ينفي أن انجذاب الشهداء واستهواءهم الذاتي في مصرع العذاب بين الضواري الممزقة لحمانهم . واقتحامهم الموت بصبر الامل وثقة الشجاعة ، إنما كان أعظم نصير للمسيحية على الوثنية وأسمع داعٍ إلى الإنسلاك فيها ؟

هكذا صار الفراعنة مع الزمن - على نحو ما وجد الفتح

الاسباني بعدئذٍ زعماء القبائل في أمريكا الجنوبية — أبناء الشمس المنيرة . وهكذا صار زعماء الجرمان صنعة نخذ « تهور » اله الحرب فغدوا أحفاد « أودين » الاله الاسكندنافي الميثولوجي واهب البسالة وعلّة المعلولات . وهكذا صار المهرجاه ثمرة تقمص من تقمصات فيشنو الاقنوم الثاني من الثالوث الهندي . فضلاً عن أن جماعة من ملوك اليونان واللاتين وأباطهم جاءوا من تزواج البشر والآلهة عند مرور هؤلاء على الارض . وصار من الملوك من إذا رؤي صمق رائيه كأن جلاله جلال المولى في عليقة موسى . وأوتي آخرون علماً وحكمة خارقين كملوك فرنسا وانجلترا يشفون الصرع ، والشال ، وداء الخنازير ، وغيرها بمجرد اللمس الكريم . وظلت القرون الوسطى ، بعد الاولى ، ترى هالة الالهية حول الملكية وتحسب حبل سلطانها مشدوداً بتمسك العرش الصمداني حتى اليوم وقد استوضح التحييص من خفايا الترهات والتقاليد الذميمة شيئاً كثيراً واتبع فن النقد

الدماء الملكية في رحلاتها المتعرجة خلال الانساب الجمة  
 انتهي حتماً إلى المصبّ المقصود - كأنها الرجل المستقيم  
 لا ينمعه أعوجاج المحيط عن الاهتداء إلى الصراط السوي .  
 اليوم وقد ناوش استقلال الشعب اثره الفرد وتغلب عليها  
 بالنظم الدستورية ، فأبقى للفرد السلطة النظرية واجهة  
 تزويق لبنيان فيه تتصرف الأمة بشؤونها الادارية  
 والقضائية والسياسية . اليوم وقد قضت الحرب على البقية  
 المتمثلة من الحكم المطلق بقضائها على قيصرية المانيا والنمسا  
 والروسيا ، بعد أن قضت الثورة العثمانية على الاستئثار  
 الحميدي . اليوم ما زالت الجماعات تهيب مظاهر الابهة  
 الملكية . لان الاستهواء الحسيّ الوقيّ يُضاف الى  
 الاستهواء الوراثيّ المتراكم الذي يتناول المرء كائناً  
 حرّيته الشخصية ما كانت ، ويعُدّه للتأثر والاستسلام  
 كما تأثر القنبرة بضياء المرأة الساطعة فتجمد أو تستسلم  
 أقول الجماعات وأعني الافراد كذلك . أعني أقوى  
 الافراد شوكة وأبقايم أثراً ، تنكسر شوكة الملوك ويظلّ

صوتهم مسموعاً ويعنى أثر القياصرة وهم أبداً خالدون .  
 فقولتر أحد مهيئي الثورة الفرنسية والهاتف باحترام  
 الفكر وتقديس الحرية الفردية ، يرسل رهطاً من ملوك  
 أوربا ويقبل صداقتهم . ولا بأس بهذا ، إنما الشيء الفريء  
 أنه يختم رسائله بوضع احترامه وتعلقه وولائه « تحت  
 اقدامهم » . وقاسم أمين المصلح الجريء يطمع في تقديم  
 كتابه « تحرير المرأة » إلى سمو عباس الثاني .  
 ورابندرناث تاغور الهندي نبى وحدة الوجود المثبت  
 في قصائده أنشودة الحياة مترددة من كوكب إلى كوكب ،  
 ومن ذرة إلى ذرة ، يحمل لقب « سير » أنعم به عليه  
 جلالة ملك إنجلترا . وما هم جميعاً في ذلك إلا من نبى  
 الانسان :

\* \* \*

ولو كان هذا البحث تاريخياً لدرست أحوال بلاد  
 لا ارستقراطية فيها ، كالليونان الحديثة ورومانيا وصربيا ،  
 وأحوال بلاد أخرى كانت فيها فألفتها مثل نروج

والبرازيل . ولأُلمعتُ الى الساطنة العثمانية والساطنة  
 المصرية حيث : عدا العائلة المالكة ، لا ارستقراطية سوى  
 ارستقراطية اللقب العرضي المنوط بالفرد دون ذريته .  
 نعم ان رشاش الباشوية يصلُ الى الانجال فينقلبُ بيكوية ،  
 ولكنه ينتهي عندهم ويفنى فيهم ولا ينتقل منه الى أبنائهم  
 شيء . فحفيد الباشا افندي مجرد ، إلا ان الافندي الذي  
 لا تحصى شجرة عائلته بيكاً واحداً يستطيع : هو ومن  
 دونه ، ان يصير باشا اذا رُمقته الاحوال بنظرة الرضى  
 وإذن لكنتُ أقابل بين الالقب الوراثة في  
 الشرق والغرب واستفهم عن اصطلاحات اُحار في  
 تفسيرها . منها ان البرنسس بتريسيا أوف كونوت ابنة  
 عم جورج الخامس ، وابنة أخى ادورد السابع ، وحفيدة  
 فكتوريا الملكة والامبراطورة — تزوجت في العام  
 الماضي بسماح الملك ، ابن لورد بسيط أهلته لها شجاعة  
 ابدائها خلال الحرب ، وتبادلُ عاطفة الحب التي تسوي  
 بين الدرجات وتمحو فروقها فتشرف كل ما لمسته باناملها

الخفية . فتنازلات البرنس عن لقبها ومرتبها ، وأصبحت بكل بساطة « لايدي رامساي » تدخل في الاحتفالات الرسمية وراء جميع البرنسبات والدوقات والمركيزات والكونتسات ، الى آخر ما هنالك من طغيات الالقباب - في دور لقب « اللادي » الضئيل الذي تحمله . بعد أن كان لها في هذه المواقف أقرب مكان في جوار الملكة . يخيلُ اليّ ان هذا ينافي المعقول في أمة يجوز أن تحكمها النساء ، وقد فعلن . اذ كان المنتظر ان تكون امرأة كالبرنس باتريسيا ان لم تعطِ زوجها لقباً كلقبها فهي تحفظ اللقب لنفسها ، على الأقل ، كما بقيت جدتها ملكة انجلترا في حين ان قرينها لم يكن الا برنسا المانياً فقط

وبخلاف ذلك هنا في مصر حيث لا تكون ولاية العهد والحكم لغير الذكور ، فان البنات الحاملات لقب برنسبات اذا هنّ تزوجن برجل ليس بذى لقب لا يفقدن لقبهنّ العائلي ، ولا يفتأن يحملنه ويُنَادَيْن به . يُنَادَيْن به ليس تزلفاً أو مجاملة بل هو حق لهنّ مدوّن في



كتاب الالقب الرسمية : معترف بامارتهم من البلاط السلطاني

ولربما هبطت دركة أخرى لأرسل نظرة في الالقب اللبنانية المدهشة باباحتها . ففي جميع البلدان الكبيرة والصغيرة يرث لقب الشرف الابن البكر . ولأعضاء العائلة المالكة لقب برنس وبرنسس على شريطة أن يكونوا أبناء ملك أو أحفاده ، مباشرة من جهة الذكور . أما في لبنان حيث انقرض الحكم الوراثي منذ عشرات الأعوام فأبناء المير أو الأمير يولدون أمراء ، وأبناء الشيخ مشايخ كلهم لا يتملص من هذا المقدور فرداً واحداً . فلو نفذنا هنا القانون الساري في جميع البلدان وأجرينا التصفية اللازمة لهذه الشيوعية المطلقة ، فأى رياضي ينبثنا كم شيخ وكم مير يبقى من عملية الطرح الباهظة ؟ لو اقتصر اللقب على ابن الحاكم الأصلي وحفيده ، وظال فيما بعد متتابعاً بالوراثة الى البكر من الذكور ، فكم مقلب يأتى يفلت من عجاجة المعمة اللقيبة ؟ ومما يلفت

إن زوجة المير اللبناني كانت تُعرف أيام حكمه «بالست» وما زالت بطاقة الزيارة لها على هذا النص بالعربية والفرنجية «مدام الامير كذا كذا» . ولكن يظهر ان «ارتقاء» بعض الاهالي في بيروت ولبنان وفي المهجر آل الى كرم حائمي بالالقباب ، فصارت كل سيدة «أميرة» قبل زواجها وبعده ؛ وفي هذه الحال الاخيرة يضاف اسم عائلة زوجها الى اسم عائلتها ؛ كل هذا والبرنس باتريسيا حفيذة أعظم امبراطورية وأعظم دولة عرفها التاريخ الى الآن ، تحمل لقب لايدى رامساي ؛



يرى بعضهم الملكية وارشتراطية الحسب متلازمتين إذا وجدت الواحدة قامت الى جانبها الاخرى . وفي هذا القول صواب وخطأ . أما الصواب ففي احتياج الملكية الى ارشتراطية تتكل عليها . وأما الخطأ فلأن الارشتراطية في غنى عن الملكية تستطيع أن توجد وتنمو بدونها . لذلك نرى الارشتراطية في تعريف

ارسطو اقلية من ذوي الاهلية والفضل يسودون في  
 جمهورية فيديرون منها الشؤون، وينفذون القوانين  
 الموضوعه بأمانة ودقة ، ويقومون بعء الحكم حبا  
 بالمصاحه العامة والخير العام . ويضارعه تعريف شيشيرون  
 في كتابه عن الجمهوريه حيث يسمي الارستقراطيين  
 optimates وهي الترجمة اللاتينية الحرفية لكلمة Aristoi.

اليونانية ، أي الأفضلين أو الاماثل . فعنى الارستقراطية  
 الأصلي اذا هو حكم الافضلين ، أو حكم الافضل

طبعي ان يؤلف المرء لنفسه جماعة تتفق مصالحها مع  
 مصالحه بقدر الامكان ، ويثق من مساعدتها عند  
 الخطر المداهم . والمللكية تتبع هذا النظام الطبيعي ، اذ  
 لاشيء ألزم للسلطة الوراثية من الارتباط بذوي  
 الشرف الوراثي ، وتتوقع أن تبقى لها عواطف الشكر  
 والولاء في أسرة اغدقت عليها هي وأسلافها الالقاب  
 والخيرات . ولكن طالما ضلّ هذا الأمل . وأن وجد  
 يوما من يدعى هندنبورج وغيره من كبار الضباط والقواد

الذين ظلوا يسمّون غليوم الثاني « ملكي وامبراطوري »  
 بعد محنته ، وتطوّعوا في تقديم نفوسهم عنه للمحاكمة  
 الدولية ، ففي التاريخ شواهد أخرى هي عبرة المعتبر .  
 كمعاملة أشراف انجلترا للملك غليوم اوف اورنج وجورج  
 الأول . ومثاها معاملة أشراف الملكية الفرنسية  
 لنابوليون الاول ، ونابوليون الثالث ، ولويس فيليب ، وما  
 كان بعد ذلك من سعي اشراف الامبراطورية النابوليونية  
 ( أي الارستقراطية التي خلقها نابليون ) لارجاع البوربون  
 واجلاسهم على عرش فرنسا :

في البشر استعداد كبير لنكران الجميل والتملص من  
 قيوده ، والايقاع بصاحب الفضل عليهم عند قضاء المصلحة .  
 ورغم ذلك ما فنى الملوك يوجدون الارستقراطية اللقبية  
 جزاء خدمة جليلة وأملاً في ولاء مقيم . وان لم يسلم  
 ملوك الفكر من التقرب فليس من يتقن فنون التزلف  
 ويبرع فيها كأولي العزّ التالد . فهذا الشريف الذي  
 يزن نبرات صوته ، ويعدّ خطواته ، ويقيس اشاراته مع

الخلق ومع نفسه تراه يتوق الى خدمة الملك سرّاً وعلانية . واذا أسعده الحظ بحاذاة سيده في احتفال رسمي هرع يغسل يديه ، ويقبل أنامله ان لم يترغ جبهته عند موطنه ، قدميه ، وقدم له اطباق الطعام ، وملاً كأسه خمرأ أو ماء ، وحمل أوامرهُ الى الآخرين . فهو بالاختصار يمثل دور « جرسون » قهوة أو مطعم ، وهو بذلك نفور

الارستقراطية ضرورية لمنفعة الامة . آه ! اني أسمع زئيركم يادعاة المساواة ، وأرى ازوراركم أيها الاسانذة الديمقراطيةون . انها ضرورية للاحتفاظ بصفات هي جزء من ثروة الامة . لان لكل طبقة قوة حيوية أو تخت من عليها . لست قائلة باحتكار القوى والكفاءات في يثة دون يثة . ولا أنا قائلة بذكاء ابن الذكي ، وبفضل ابن الفاضل ، وبأن ابن النصاب لا بد أن يُعَدَم شنقاً . ربما كان مرث الوراثة أكثر أسرار الطبيعة تنبيهاً لحب البحث في . ما أضمن تأثير الوراثة

المباشرة — من جهة ، وما ألغاهُ من جهة أخرى : تقولون أنه لغو بتغلب الوراثة المتقطعة ، أو الرجعي : أو الوراثة البعيدة على الوراثة القريبة ؟ قولوا ما شئتم وأنا أبقى على اعتقادي حتى يتغلب عليه اعتقاد خير منه . وهو ان المواهب تطلُّ متدفقة في ذلك التيار الرائع تيار الحياة الذي يخرق الأكوان ، ويلقي نثراتٍ منه أتم بهاءً وسناءً في أفراد دون أفراد بصرف النظر عن صيغة نعمتهم الاجتماعي . غير اني أقول كذلك انه اذا كان للتربية الشخصية والبيئية تأثير — ويتعذر نفي هذا اذ نسد بنفيه باب التقدم والتحسين — فكيف بالتربية الوراثة الطويلة ؟ لهذه القاعدة شواذها أيضاً ومن الارستقراطيين من هم دون الخماين ذلاً ومهانة . ولكن هذا الشواذ يثبت القاعدة التي هي ان رفيع الحسب يكون عادة مباهياً باسمه يطمع في صوته ناصعاً ألعياً ، ويرغب في عظام الأمور لانه مسوق أبداً

بكبرياء المولد . زد على ذلك انه يشبُّ على تربية حسنة ، وذوق مصفى ، ومعاملة جميلة ، وتدير مرضي ، وعلم كثير ، وعادات نبيلة ، وميول سامية . جميع هذه الصفات يقتبسها عن محيطه الممتاز بعد أن تكون الوراثة المباشرة وغير المباشرة أثرت فيه تأثيرها . فيبتدى حياته على استعداد تام . أكاد أقول أنه يبتدئها حيث ينهيها من لا اسم له ، وتمهدها الحياة سبلاً لا تفتح للوضيع ، فكان خدمة المصاحبة العامة وخدمة الانسانية أيسر له منها لغيره . له أولوية الشهرة وشهادة ائجد يظلم بها مكرماً معززاً أينما ذهب ، بينما الآخر يُضحى غالباً لانه مجهول لا يعرفه أحد . فيصرف قواه ونشاطه في اقناع الناس بوجودهما عنده . وتتابع الخيبة والفشل قد يملأ قلبه مرارة ويفسد خلقه فيتحدّر من يأس الى يأس ، ومن انكسار الى انكسار حتى يهوي في لجة الارتباب من مقدرته

وكفائه . فيلقى السلاح ، ويطوي اللواء ، ويسلم تسليم  
المغلوب عند ما ينطلقُ الارستقراطي في سبيل السعي  
واحجد . وادخار هذه الشخصيات الموهوبة بحكم الوراثة انما  
هو في مصلحة الشعب والانسانية بلا جدال ✓

هو في مصلحة العموم لاسيما اذا كانت المرتبة شبيهة  
بالارستقراطية الانجليزية التي لها بين ارستقراطيات  
أوربا مكانة فريدة . هذه بيئة تكونت ببطء متناهٍ لتعادل  
السائد والمسود حضارةً في تاريخ هاتيك البلاد . فاندغم  
النورمانديون بالسكسون على ممر الدهور فتألفت  
أفضلية ما زالت بتساهلها ورشدتها تحفظ امتيازاتها  
في هذا الجيل العصيب . لانها وهي من أكثر  
الارستقراطيات محافظة على تقاليدها التي منها تفرّد الابن  
البكر بحقوق الوراثة ، فهي في الوقت نفسه حكيمة  
تعيش في أراضيها على مقربة من الفلاحين بعيدة  
عن التبذير والاستهتار ، تتعاطى الصناعة والتجارة وغير  
ذلك من الاعمال . وتفتح بابها لكل ذي أهلية ومعرفة



و ثروة أو خدمة جليلة . وهي ذات أثر في معظم شؤون الدولة تقبلُ الاصلاح . وتنبه الى التعديل الضروري . وقد جاهدت مع الشعب لخل الملكية على احترام القانون . وتحرير الكاثوليك ، ومنح اراندا المساواة السياسية . واعطاء اليهود حقوقهم المدنية والسياسية ، وانشاء النظام النيابي وما نحوها . فهي قليلة الاذى ، قليلة الظلم ، وهي مستودع صفات وعادات مستحسنة . لذلك ستبقى زمناً آخر لانها قريبة الى نظام الطبيعة



أظن أن ذكر نظام الطبيعة ، بعد هذه المرافعة الطويلة في تأييد الارستقراطية ، يشفعُ بي لدى السادة الديموقراطيين ويفرج من عبوسهم في النظر اليّ . لا أقول ان الإشراف أو التفاضل ضروري في الطبيعة فحسبُ ، بل أقول انه من الطبيعة ولا يمكن حذفهُ لأنه ، كالانخفاض ، جزء من أجزاء الوجود . لاشبه تلاشٍ ضده ، وبملاشات الضدين يحى كل شيء . الإشراف

والانخفاض من الوجود نفسه ، إذ ليس سطح الأرض  
 كلهً بالمنبسط ، ولا النجوم كلها من قدر واحد . والذين  
 يطلبون المساواة مستشهدين بالشمس تسكبُ نورها  
 على الصالحين والطالحين ، وبالماء تسبحُ فيه جميع الأسماك  
 على الإطلاق ، ينسون أن الأسماك من طبيعتها التنوع  
 حجماً وصفةً فمنها المفصفر ومنها القاتم ، ومنها  
 السردين ومنها الحيتان . وينسون أن العبرة ليست بالنور  
 الذي ترسله الشمس بل بالغاية المتنافرة التي يرمي إليها هذا  
 وذاك ، وبكيفية الاستفادة من النور والظلام لبلوغها .  
 فكما أن سطح الأرض ينبسط هنا مروجاً وسهولاً ،  
 ويهبط هناك منحدرات وأودية ، ويتشامخ هنالك جبالاً  
 وقمماً ، كذلك للطبيعة البشرية سهول وأودية وقمم

وهاك استدراكاً ينبغي حظوةً في عيون جهابذة  
 الديمقراطية ويصح أن يكون متناً لكل بحث في تاريخ  
 الاجتماع . وهو أن الارستقراطية التي احتكرها ذوو  
 الألقاب ابينهم ليست إلا جزءاً من الارستقراطية

التامة المتشكلة من ارستقراطية الفضل (وهي التي يعنها  
 ارسطو وشيشرون) وارستقراطية الحسب، وارستقراطية  
 العقار، وارستقراطية المال، وارستقراطية النبوغ. ومن  
 المفكرين مثل شوبنهاور الفيلسوف الالماني، من لا يعترف  
 بغير الارستقراطية الاخيرة، إذ يرى الناس اثنين: عبقرياً  
 وخاملاً. وبينهما هوة يستحيل عبورها لان الطبيعة الخاملة  
 لا تتحول طبيعةً عبقريةً. وللعبقرى كل الفضل في نظره  
 لانه هو مبدع كل جميل وعظيم. ولكن إذا صحّت نظرية  
 شوبنهاور من حيث إرجاع الابداع إلى العبقرية فهذا لا ينفي  
 ان للدرجات الاخرى فضلاً متساوياً مع استعدادها،  
 في تطوّر العمران. البذرة تلقى وهي أصل الشجرة،  
 ولكن النمو يتطلب عناصر أخرى. الشرارة أصل النار.  
 ولكن لا بدّ من مواد يتسع بها اللهب وينتشر. والغريب  
 هو شعور أهل الالقاب والجاه بضوؤة ما لديهم  
 فيسمعون للحصول على الارستقراطيات الاخرى. وإن لم  
 ينالوها تظاهروا بحيازها. مثال ذلك رغبة الملوك والعظماء

في الاشتهار بالعلوم والفنون وضروب الانشاء . ومن  
لا يذكر ما جرى للويس الرابع عشر مع بوالو النقاد  
الفرنسوي الذي عرض عليه الملك يوماً قصيدةً من نظمه  
كأنه يلتبس مصادقته واستحسانه ليفاخر بهما أمام  
الاعوان ، فكان جواب بوالو : « مولاي قادر على كل شيء .  
أراد نظم أبيات سقيمة فنجح كل النجاح » . وقد يخلط  
الناس فيحسبون أن من توفرت له ارستقراطية توفر  
له غيرها . كقول الشاعر عن ارستقراطية المال :  
فهي الكلام لمن أراد فصاحةً وهي السلاح لمن أراد قتالا  
تقبل هذه النظرية من شاعر فقير بلا ريب . لان  
الواقع أن المال يبالغ في إظهار العي ويزيد الجبان خوفاً وجبنًا .  
ولا يكون « الكلام » إلا لمن فطر على الفصاحة ، ولا  
« السلاح » إلا في يد الفارس المقدام . ولا هو الارتقاء  
إلا لمن خلق يرتقي متسلقاً جبال الصعوبة فيصل إلى ذروة  
التفوق . أما القول بالخط والنصيب فصائب إلى حد ما .  
بيد أنه من دلائل العجز أن يظل المرء مكتوف اليدين في

انتظار « الظروف » ليتحرك . « الظروف » تخلق الشخصيات الضرورية لها ، وتكون الارستقراطيات الفردية والقومية المطلوبة ، وتنبيه النبوغ وتمييزه . ولكنها في الغالب تختار ممثليها وأبطالها بين العاملين المتحفزين لا بين الكسالى الخاملين . وإن اختارت خاملاً سهواً بدد عطايها هباءً وظلّ الحظ فيه على نحو قول العامة « رمح يغرز في النخالة »

قال شاعر عربي آخر « كل من سار على الدرب وصل » . وهذا الآخر يشفع في نظريته أنها منظومة . كلاً ، لا يصل كل من سار على الدرب لأن المدعويين كثير أما المختارون فقليل . ويقال أن فضل المجاهدين في انخزالهم أعظم ، ولا بأس بنشر هذه الكلمة للتشجيع لا سيما وأن نتيجة الجهاد لا تُعرف قبل البلوغ إليها . ولكننا نعلم أن الحياة لا تكرم وتكبر إلا من كافح فغلب . أما الآخرون الذين ينهكهم الجهاد فيقعون صرعى في طول السبل وعرضها ، فتلقى عليهم نظرة الاشفاق ثم تنسأهم لأن وقت البطولة ضيق لا يسع التحشّر على

الفريسة والضحية . وستظل الارستقراطية ، ارستقراطية الجماعة وارستقراطية الفرد ، مادامت الطبيعة ولو تحوّلت منها الانواع وتغيرت المظاهر وتعدّدت الاسماء . سيظل التفوّق موجوداً ما بقي بين البشر جماعات وأفراد يسرون بخطوات الجبابة نحو قمم الوجود فيتجأون على طور القدرة والمجد فوق صياح الصائحين وتجديف المجدفين . سيوجد أبداً هؤلاء ، ومنهم من ينعكس خيال ارستقراطيتهم في الاجيال الآتية ويمتدّ حتى أطراف الدهور القصية ، مهما تقلّبت الثورات والنظم والعمرانات . هذا إذا كانت الارستقراطية من الطراز « الأصالح » وهو الطراز الذى قرّرت له الطبيعة الفوز أولاً وآخرًا

## ٣

## العبودية والرق

من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض :  
 تجعل الائمة الجرداء قرب البحر الزاخر . وخضرة  
 الخثائل وخصب الواحات وراء رمال الصحارى وقحط  
 القفار . حيال الذروة الارستقراطية يزيناها تاج الملكية  
 تحفر البطاح لسيل العبودية الجراف حيث تنزيف  
 السجاياء وتلاشى المكرمات . ما أقامت ارتفاعاً إلا  
 أوسعت نخومه تجويفاً ، وما جادت بنابه إلا بات  
 بمعنوه ، ولا سلمت بوليد إلا ودعت بصريع

ألا إنما الحياة غنية بالمال والدكار والكرم والصلاح  
 والحب والجمال والفخار . على أن في كفتها الاخرى ما  
 يعادل الاولى من شقاء وفقر وخمول وقبح وكره وانحطاط .  
 كأنها مرغمة على حفظ النظام في توازنها ، إذا هي أسرفت

في نقطة تعقبت الاسراف بالاعتصاف في ما يحاذيها . فحيث  
يتمدُّ الرخاء تنتشر التعاسة ، وحيث يكثر الخير يقلُّ ، وحيث  
يتغلب قومٌ يندحر قومٌ . هنا القصور والصروح  
والاواوين وهناك الاكواخ والخصاص والزرائب . حتى  
الصحة ذاتها قتلٌ متتابع ، وكان نفس الطفل البريء معملٌ  
هالكٌ يفتكُ بمكروبات لو انتشرت في جماعة لأودت بهم  
ترى هل امتداد الكون المهيمن مسافة محدودة ان  
نحن رأيناها لا تحدُّ فلقصر النظر ، وقواه كمية معدودة  
ان نحن زعمناها لا تعدُّ فلضيق الادراك : هذا سؤال  
يخرجنا من الاجتماع والتاريخ لتدخلنا محاولة الجواب عنه  
في الفلسفة واللاهوت ، وما نحن منه الا في دائرة تبتدي  
عندها الابحاث حيث تنتهي



كتاب « مانو » هو أحد كتب الهند المقدسة وقد  
حوى شرح مذهب البراهمة وتاريخ مدنية الآريين منذ



نشأتها. فجاء فيه أن أصل العبيد سبعة : أسير الحرب ،  
ومعدم رضى لمن يكفل معاشه . وابن العبد المولود  
في بيت المولى ، والفرد مهدى هدية أو مبيعاً بيعاً ،  
والمنتقل بالارث من الوالد الى الولد ، والمستعبد عقوبة  
على جناية ارتكبها ، والمستعبد لعجزه عن تأدية دين أو  
ضريبة أو غرامة . وسواء أُمَّ هذا الاحصاء بكل الاصول  
أو أغفل بعضها فالعبودية قديمة كالحرب ، والحرب من  
خواص الخليفة . لقد حاذت طبقة العبيد طبقة الاحرار  
منذ فجر العمران وكأنها في تلك المحاذاة تقول :

هَمْ جيرة الاحياء أمّا جوارهم فدان ، وأما الملتقى فبعبيد  
وكيف « يلتقي » اثنان يمتلك أحدهما الآخر امتلاكاً

لا يقصر على تضيق الحرية الشخصية شأن الرجل مع  
المرأة والمؤدّب مع التاميد ، وانما هو حذفها ليصير العبد  
آلة خضوع وعمل ، تُحصى من متاع المالك مع المواشي  
وما شاكلها

مأساة دهرية يتألم لذكرها القلب الشفيق ، بيد أن

المؤرخ المفكر يراها فجراً محصصاً في ليل الهمجية ، وأول بادرة من بواذر الرفق من حيث إدراك وجوب الاحتفاظ بحياة المغلوب والحرص عليها . هي دليل التقدم وأن نسبها هربت سبئسر الى الشيع بتقريره أن أول العبيد هم أسرى الحرب . وقد جرت العادة بأن يأكلهم الغالب في ولائم النصر . وأنه عند ما كثر عددهم أُجِّل قتل بعضهم للتلذذ بلحماتهم المشوية في وليمة آتية ليصير النصر الواحد نصرين . فاستخدموهم خلال هذه الفترة فانتبهوا للحال الى أن حياة الاسير أنفع للغالب من موته

وعلى كلِّ فان الابقاء على الاسرى يظلُّ كبير الاهمية لاثباته ان النوع ، حتى في تلك الهمجية القصوى ، ذو نظرة صائبة و ارادة قوية تمكنه من ممارسة الايقودية قبل ولادة اسلاف ايقورس ، فيضحي اللذة الصغيرة للحصول على لذة أعظم . . . . . وأهميته الكبرى في إيجاد العبودية وهي الفارق الاول للدرجات الاجتماعية ، والمرتبة الاولى لتقسيم العمل الذي

قامت عليه دعائم الحضارة . فلو لا الناطة الاعمال الدنيا بأولئك القوم ما تفرغ المحارب لبسط سلطانه ، ولا أبدع أعوانه ما استلزمه فنون الحرب وتؤدي اليه من عمل زراعى وصناعي واقتصادي وسياسي . ولولا ذلك التقسيم وهذا الابداع ما ظهرت الحقوق والواجبات . ولا كانت النظم ، ولا توصل البشر الى تخزين قوة وحقق يستحيل وجود مثاهما عند العشار الاولى

لقد عرفت العبودية شعوب الشرق قاطبة من الهند والصين الى مصر ففينيقية فآشور ، فالفرس الذين ضموا تحت لوأهم أم أسيا الغربية . فاخبروا جميع صنوف العبودية في الحقول والمنازل والايوانات ، منذ أيام بابل الى عهد اليونان . وحالة العبيد متماثلة في كل مكان يتصرف السيد بهم بيعا وحياة وتعذيبا وموتاً ، انما يختلف هذا التصرف باختلاف فطرة الشعوب واستعدادها . فبينما حالتهم في الهند على أسوأ ما يكون اذا بهم في الصين على هناء نسبي لا ينظر اليهم كأشياء أو آلات . بل كأناس يحميمهم

القانون جاعلا حياتهم في مأمن من الخطر وأعضاءهم سائمة من التشويه . وليس في تاريخهم ثورة واحدة على تجمعات الالوف منهم حتى اضطرت الحكومة غير مرة الى اعتقالهم بالجملة ، طغمة بعد طغمة ، لتفسيح مكانا للمستجدين من أسرى الحروب والجناة ، والعصاة الثائرين على الحكم الاعلى . ومع انهم ملك الامة المشاع فهم يعيشون في العائلة كوضيع أفرادها ، وكل عبد أن يُعتَق بعد سن السبعين ولكن كثيرين كانوا يابون الحرية لتعلقهم بمواليهم . أما في منشوريا فلم يُستعملوا إلا للزينة والابهة في الاعياد القومية والاحتفالات الرسمية . ثم تدرجت العبودية الى الرق بالعمل الحر ، فكان التطور الاجتماعي في الصين غير متخلف عنه في الغرب

أتصدّق أن اليهود « شعب الله الخاص » كانوا يمتلكون بعضهم بعضاً ؟ إن الشريعة تبيح لهم استعباد أخيهم اليهودي ستة أعوام ، أما غير اليهودي فعبد حتى الموت . ولا يُفهم ما ورد في انجيل يوحنا قولهم للمسيح

« نحن لم نستعبد لأحد قط » وهم خاضعون يومذاك للاحتلال الروماني ، وقد بيعوا في أسواق أورشليم ، واستعبد سامنصر عشرة أسباط منهم ، وظل سبطان آخران في قيود أهل بابل سبعين عاماً . وقد جاهدوا في كتاباتهم بأنهم استعبدوا سبع مرات في أرض الميعاد . ومن يجهل بيع عيسو بكوريته يعقوب بأكلة عدس ، أي بيع كل حقوقه وقبول العبودية لذراريه ؛ ولكن العرب الذين ينتسبون الى عيسو كادوا يحون بسيادتهم وعظمتهم هفوة السلف الجائع . وقد باع بنو يعقوب أخاهم يوسف للتجار وباعه هؤلاء في مصر لخدمها في السفين الجوائح ، وجرّ اليها ذووه فانهى بهم الامر الى الرق . ولم يكن ليطلق سراحيهم لولا الضربات العشر الذائعة الصيت . على أن العبودية عندهم أخفّ منها عند غيرهم . ترى بين العبد والمولى تبادل الامانة والرعاية فيحفظان السبب سوياً ، وللعبد أن يتزوج وينشئ عائلة وحرية ميسورة بالمال . ان قتله مولاه يُقتل ، وان جرحه

أعتقه ، فاذا انقضت السنة السادسة ورفض ان يتحرر  
 قُدِّم الى قضاة الشعب فثقبوا اذنه عند باب سيده . ولقد  
 كان ثقب الأذان رمزاً للعبودية عند شعوب كثيرة .  
 أفتعجبين بعد هذا ياسيداتي ، اذا أنا أذريت ما يشعُ في  
 آذانكن من فرائد الدرّ والجوهر وما تهدّل منها من  
 الحجار الكريمة وغير الكريمة ، لأحدّق في ذلك الثقب  
 الذي يشوّه أذني أنا الأخرى ، وان كفيته عار الاقراط  
 إني لأتأمله عندكنّ وألمسه فيّ مبتسمة خجلى



حمل الفينيقيون نظام العبودية مع ما حملوه من الانظمة  
 والعادات الى اليونان فجرى هوّلاً عليه وكان العبيد عندهم  
 أنواعاً : نساء لخدمة البيت . ورجالاً للفلاحة والزراعة  
 وخدمة الجيش وسائر الاعمال الخشنة ، وصبية متأنقين  
 يكرمون الضيوف ويمدّون المركبات ويرافقون ابن  
 مولاهم في تنزهه وجولاته ويشاطرونه دروسه والعباهُ ،

كانهم المماليك الصغار في بعض البيوت الشرقية . عوملوا  
برفق فأحبوا مواليتهم ان غاب أحدهم يوماً تألموا لفراقه  
وانتظروه باكين ، وان عاد اقبلوا يلثمون يديه ووجهه  
فرحين . واذا اكتسبوا ثقتهم بحسن سلوكهم ورجاحة  
عقلهم أطلق يدهم في ماله وشؤونهم وأنزلهم عنده مكانة .  
قد يكون سبب ذلك ان اليونان كانوا يقدرون الاعمال  
اليهودية . حتى ان هوميروس ذكر العمال على مقربة من  
الابطال وقال ان الحدادين والمهندسين والتجارين كانوا  
يُدعون مع الاطباء والعرافين والشعراء الى ضيافة الملوك .  
وكان أبناء الاسيرات أحراراً مثل تويسر المولود من أسيرة  
لم يكن من فرقٍ بينه وبين أخيه أجاكس ( المولود من  
حرّة ) ابن تلامون ملك أجين . ولا عجب والملوك  
والملكات كل يوم عرضة للاسر والاستعباد . مقدورٌ لم  
ينجُ منه ولا الآلهة إذ ان البشر أسروا أبولون ونبتون  
وقواكان ومارس . فامتثل هؤلاء الآلهة وخدموا صامتين  
حتى رفقت بهم يدُ القدر

أما الاسبارطيون فطبعوا العبودية بطابع شدتهم .  
العبيدهنا ملك الجمهور يلبسون جلود الحيوانات ويُسخَّرون  
لباهظ الاعمال بصرامة عسكرية ، ويُسكرُون إلى درجة  
العريضة وفقد الشعور ليري الاحرار كم يحطُّ الشراب من  
قدر الشارب فيعرضون عن الخمر ويأنفونها . نحن تضحكنا  
حكاية جحا الذي أرسل ابنه يستقي ماءً فأوصاهُ أن لا  
يكسر الجرة في الطريق وضربهُ ضرباً مبرحاً . فاعترض  
الجار لان الولد عوقب قبل أن يغادر البيت وقبل أن  
يرتكب الذنب . فأجاب جحا « وما نفع الضرب بعد  
كسر الجرة ؟ » كذلك اعتاد أهل اسبارطة ضرب العبيد  
ضرباً عاماً لا لاثم جنوا وإنما ليدكروا دواماً أنهم عبيد أقلّ  
ما تهدّهم الشياط . ويحظر عليهم حتى القوة البدنية فيقتلون  
القوي منهم ، أو يؤدّي مولاهُ ضريبة لانه لم يوقف نموّه .  
وكثرة الانتصارات والفتوحات مورد عبودية متدفق كان  
يضاعف عددهم على عدد الموالى سبعاً أحياناً فيفتك بهم  
بأساليب مختلفة تخلصاً من شرهم . وروى ثوسديدس أعظم



مؤرخي اليونان ، أن الموالى سألوا عبيدكم مرة عن الالفين  
الاشد بينهم بأساً والأقوى شكيمة ليعتقوهم ، فقام العبيد  
بانتخاب ذينك الالفين وتناولهم السادة فزاروا بهم  
الهياكل ثم اختفوا ولم يعد يظهر لهم من أثر

وكم من تحالف للعبيد مع أعداء اسبارطة وكم من ثورة  
جعلت السادة فى خطر مقيم . وقد تلاحظوا مرة وكان تهديدكم  
مخيفاً فاضطر الاحرار الى طلب الهدنة والمساومة مع الزعيم  
دريماكس . ثم عادوا فاغتالوه بعد عقد الاتفاق . فاستأنف  
الشوار هياجهم وأقاموا له مذبحاً جعلوا عليه هذه الكلمات  
« الى البطل المحسن » . ويقال أن هيكل أفسس يعود  
تشبيده إلى اتفاق ، عقب ثورة ، بين الموالى والعبيد . بيد  
أن تلك القلاقل والاضطرابات وتدخل العبيد فى جميع  
الاعمال بالتدريج قضت على الجمهوريات اليونانية وهيأت  
البلاد للفتح الرومانى

وما كان أشبه حالتهم عند الرومان بها عند الاسبارطيين  
فعمدوا الى العصيان والحروب . وكادت حرب اسبارطقس

تؤدي إلى خراب روما لولا قتل العبد الزعيم الذي قضى  
مجدفاً على اسم روما الممقوتة

جاء دور التحرير تحت تأثير الفلاسفة فأخذ العبيد  
يتعاطون جميع أعمال التجارة ، وتيسرت لهم المناصب  
السياسية فارتفع بعضهم ارتفاعاً عظيماً مثل نارشيسس  
مستشار الامبراطور كلوديس الذي حرّض على قتل  
الامبراطورة مسالينا . وشهر آخرون بالشعر والفلسفة  
مثل ترانتسيوس الشاعر الهزلي ، والشاعر هوراتسيو ،  
وابكتتس الفيلسوف الرواق وغيرهم . وكانت كلما علت  
مكانة العبيد هبطت الدرجات العليا إذ ان أولئك لم يكونوا  
يطلبون المساواة للمساواة وإنما يرمون إليها ليصيروا  
هم سادة ويمسي الموالى لهم عبيداً

والمدحش في كل هذا أن الفلاسفة لم يقبّحوا العبودية  
ولم ينكروها بل أقروها مع أن منهم من ذاق مرارتها  
كديوجنس الكلبي ، وابكتتس السابق ذكره ، وأفلاطون  
الذي ظلّ أسيراً في مصر وصقلية حتى فداه أحد أصدقائه .

وكل ما امتاز به أفلاطون هذا أنه لم يضرب عبده بيده  
لأن الفلاسفة والشعر رفقاً منه النفس واطفا الشعور  
خملاه على أن يوكل إلى سواه تنفيذ العقوبة في مملوكه :



يوصلنا هبوط روما إلى مطلع القرون الوسطى التي  
تكيّفت خلالها الطبقة السفلى تكييفاً خاصاً . لم تُلغ العبودية  
بل بالعكس بقيت منتشرة في البلدان المختلفة ولها في ليون  
بفرنسا ، وفي روما بإيطاليا ، أسواق عامرة بالتجارة  
الآدمية من السود والبيض . ومرّت العصور : فاكتشف  
كولمبس القارة الأمريكية في أواخر القرن الخامس  
عشر ، ولم يُهمل هذا المرفق التجاري بل كانت له أهميته  
وانظم بعدئذٍ الاسبان والبرتغاليون المتاجرة بيني الانسان  
تنظيماً دقيقاً بين العالمين

لم تلغ العبودية انما امتازت القرون الوسطى بشيوع  
الرق الملازم لنظام الاقطاع في أنحاء أوروبا . لقد تسارعت

العبودية (Slavery, esclavage) والرق (Serfdom, servage) <sup>(١)</sup>

في جميع فصول التاريخ فاختلفت معناها والتبسا في اللغات المختلفة وحسبهما الناس مترادفين لمعنى واحد . أما الفرق بينهما فهو ان العبد يملكه سيده وهو لا يملك شيئاً . وأما الرقيق فملك سيده يملكه أرضاً مقابل ما يفرضه عليه من ضريبة وخدمة وطاعة قصوى . العبد يُنزع من بلده وأهله ويتبع سيده المطلق . أما الرقيق فيظل في ديار جدوده وسيادة المولى تحددها العادة والمصلحة . اذ ما نفع أرض لا يدعمل فيها ؛ فمن مصلحة الشريف أن تعمّر الأرض وتنتج له الخيرات . ومن مصلحة الرقيق

( ١ ) لم أجد حتى الآن كلمة عربية لهذا النوع من الرق أو الاستخدام ولعل سبب ذلك انه لا يكون الا في البلدان الزراعية . وقد كان شائعاً في بلاد السودان ويطلق السودانيون عليه اسم الرق ولكنهم يطاقون اسم الرقيق أيضاً على العبد المشتري . وكان الملاك في لبنان من الامراء والمشايخ ورؤساء الاديرة يسمون الفلاحين المقيمين في أملاكهم يعملون فيها شركاء أو مرابعين . وسموا في قصة معاوية مع ابن الزبير عبيداً ولعلمهم كانوا عبيداً بالفعل .

أن يشتغل في أرض يحبها وله من نتاجها ما يكفي — ولو  
بالاجتهاد — لإعالة بيته وأولاده . فضلا عن أن الاغارات  
الخارجية وقلة الامن في تلك الايام كانت تقضي بالانتماء  
الى سيد عظيم والاحتماء بحماه . والرق في ذاته أنواع .  
وظلَّ يخفَّ بالتدريج خلال الزمن حتى فقد في فرنسا  
صفته السياسية وصار مرجع الأمر الى الملك ولم يبقَ منه  
للاشراف غير الميزة الاجتماعية . ولكنهم ظلوا منطلقين  
في الظلم والاجحاف فاهتاج الشعب غير مرة وهم يقمعون  
الهيّاج بقسوة متناهية . ثم زاد واتسع في المرة الاخيرة  
ورأى العالم الطبقات الاجتماعية تتمزج وتتساوى على دويّ  
سقوط العروش ، وانهيار جدران البستيل ، وقصص أعناق  
الملوك في ذلك الزلزال الهائل المدعو بالثورة الفرنسية  
قضت الثورة على الاسترقاق الذي كان الغي قبلئذٍ  
في انجلترا وظلَّ يُحذفُ في دولة بعد دولة . وفي  
مستعمرة تلو مستعمرة أبان القرن المنصرم . واستفادت  
أمريكا بدروس العالم القديم واختبارها الشخصي . فالغتهُ

الولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ والبرازيل سنة ١٨٨٨ .  
وهتف الكتاب والخطباء ان لطخة العار غُسلت عن جبهة  
الانسانية بفضل الثورة الفرنسية وهمة مفكرى انجلترا  
يخيل اليها نحن أبناء اليوم أن امتلاك الانسان للانسان  
من خصائص الزمن الخرافي ، مع أننا نعلم ان النفوس  
كانت تحصى في عقود البيع بلبنان مع الغنم والخيول  
وآلات الفلاحة منذ عهد قريب . وان دولة المماليك المؤلفة  
من عبيد الامس ارتفعت الى أوج الحكم فكان لها جيش  
من العبيد الغرباء . ثم جاء نابليون الشرق محمد علي باشا  
فغلبها على أمرها ، ونظم جيشاً كبيراً منه فرقة أو فرق  
بأكملها من السود النوبيين . وكادت المتاجرة بزنج أفريقية  
تشوّه جيلنا وهي من أفظع أنواع الاستعباد إذ لا أسر ،  
ولا دين ، ولا جريمة تبرّرها ، وما هي غير اقتناص البشر  
للبشر طمعاً بالمال . لولا ان مطاردتها واكتساحها من  
أشرف ما تفاخر به بريطانيا العظمى  
تري ألم يكن للنصرانية والاسلام من أثر في القلوب

لتحملها على الرحمة والعطف ؛ لاشك في تأثير الدين أياً كان . وإذا أُحصيت العوامل الكبرى كان الدين في مقدمتها لتكفيف النفوس . وقد انتقى السيد المسيح تلاميذه من الخاملين ومضى ينادى بالمساواة والغفران وحبّ الأعداء لان الجميع أبناء الله يدعون . وعزّز مذهبه العظيم بمثله في حياته الطاهرة . وصار النصارى يردّدون هذا النداء الجميل في الصلوات والاحتفالات ففعل فعله وملاً القلوب أملاً وتعزيةً . على أن الدين المسيحي أقرب الى النظريات وعلى تقيضه الاسلام فانه نظري وعلمي معاً . وجد العبودية عند شعوب سبقته فاقبلها واكنه لطفها أيما تلطيف . وعلى مقربة من تعاليمه العالية ونصائحه الحكيمة أوصى باليتيم والضعيف والرقيق وكان الطائع الاول للنبي العربي ذاته الذي بكى عبده الميت كما يبكي الكريم صديقاً عزيزاً . فكانت حالة العبد في دين محمد من أحسن حالات أمثاله . اما الإعتاق والدعوة اليه فمن أجد صفحات تاريخ الاسلام

يرمز المصورون إلى العبودية برسم رجل بأُس  
رسف في قيوده ولو أنصفوا ما كان غير المرأة رمزاً .  
الرجل عبدٌ مرة وهي عبدة مرات . قيمة الرجل في  
استقلاله النفسي وطموحه إلى بعيد الغايات . والمرأة ان  
هي أبدت ميلاً إلى الانعتاق من الاوهام القديمة والتحرير  
من العادات المتحجرة نُظر اليها كفرٍ شاذ أو خيال في  
دوائر الرؤيا . ذلك لانهم اعتادوا استعبادها ليس بالجور  
والضغط والتعذيب . فقط بل باللفظ والتدليل والتحبُّب .  
والأثمّاذا تعني هذه الحلي وهذه الجواهر ؟ بل ماذا يعني  
تغني الشعراء بجمال الوجه وملاحة القوام ؟ النساء  
المُسكينات يتهنّ دلالة ان يكنّ محبوبات لجمالهنّ ، ولو  
تفكرن قليلاً لأدركن ما في ذلك من معنى التحقير لجميع  
قواهنّ ، حتى الانثوية نفسها ، ولكفي أن يتقدم اليهنّ رجل  
بامتداح حسنهنّ وحدهُ ليرفضنه زوجاً . وهؤلاء هنّ اللاتي  
بعد أن يشتري بالمال والحلي والتملق — وقد عني سكوتهنّ  
قبول نير العبودية والرضى عنه — ينبرين فجأة لمطالبات



بحقوقهنّ مناديات بالاستقلال والتحرير ، وانا التي اكتب  
هذا يشوك الآن ساعدي سواراً دار حوله فانظر اليه  
واضحك ولا أزيحه عني . لقد توارث النساء حمل القيود  
في صورة الحلّي حتى عشقنها ، ان هي لم تثقل حركاتهنّ  
لغرض ما وضعن مكانها ما يشير اليها لغير سبب :

تشكون من زواج هذا العصر وتستصغرون الذي  
يتزوج البائنة ويقبل صاحبها معها بدلاً من ان يتزوج  
المرأة ويقبل معها بائنتها . ولكن أنظنونه أفظع من  
زواج يؤدّي فيه الرجلُ مهراً ؟ إذا ساء شراء المرأة زوجها  
فكيف يحسن ابتياع الرجل زوجته ؟ الزواج عقد اجتماعي  
يأتي فيه الشريكان برأس مال حسيّ ومعنوي : المال  
والكفاءة الشخصية : فالمال يجعل المرأة مثيلة الرجل ،  
والكفاءة الشخصية تؤهلها لان تكون زوجة معتبرة  
وماً محبوبة . زعمون ، أنتم النظريين المتطرفين ، ان  
صفاتها تكفي لاسعاد رجل نشيط يتكل على جدهم  
واجتهاده ؟ ألا فادخلوا هيكل أسرار العائلة وقفوا على

ما هناك من نكد وويلات أصلها فقر عائلة المرأة : لا أنكر ان الكفاءة الشخصية تفوق المال أهمية وان المال لا يدوم الاً حيث تكون الكفاءة ، ولكن أوافقون أنتم من ان كل امرأة تنصف زوجها ولا تختلس نتاج جهوده أو بعضه ؟ أي النفس يخاف ان تستعبده المرأة الغنية ، فهل هو للفقيرة أقل استعباداً ؟ وعلى كلٍ فعبيد اليوم كعبيد الامس ليس أمامهم للتحرير من سبيل غير ذينك السبيلين القديين : المال والكفاءة الشخصية



هذه هي الخطوط الكبرى في خريطة العبودية التاريخية ، فرغت من تعدادها بأشراح من نفذ من تحت جبل ووقف يتمتع بمحاسن الرياض  
لقد اتفقوا على ان العبودية كانت وانقضت .  
وأظني كتبت منذ هنيهة ان عصرنا يفخر بالغاء متاجرة الانسان بالانسان . وقد استجمعتُ فكري للمرة الاخيرة قبل أن القي بالقلم جانباً فتماملت في حافظتي

جميع معاني الأسى ورأيتُ أشباح الذلّ متجمهرة في  
رحاب خيالي . كثّرت عن أنيابها تهددني ومدّت بمخالبها  
نحوي لتفترسني . جيش عرمرم من أرواح العبودية والرق  
أخذ يصفق بأجنحته السوداء صارخاً « نحن أحياء نتألم  
فكيف تذكرين الموتى وتنسيننا ؟ » فدنوت من جماعة  
وقلتُ « من أنتم ؟ » فصاحوا « نحن نزلنا الليانات وضحايا  
الاشغال الشاقة . حجار الصوان تحني ظهورنا وأزير  
السياط يمزق أجسامنا . ما نحن إلا عبيد أسبارطة » .  
قلت « وكيف يكفي الاجتماع أبناءه شرّكم ؟ لقد سرتم في  
وسطه فكانت الجرائم منكم بعداد الخطوات » فتهدوا  
وقالوا وتهدم وكلامهم مقذوفات برا كين « ما نحن إلّا  
عبيد إسبارطة »

وسرت نحو جمع آخر انحنى يشغل والعرق يقطر  
من ذرات وجهه فصرخ « نحن الشعوب المغلوبة وما  
غرامة الحرب إلّا رق القرون الوسطى » فقلت « وهل  
من وسيلة أخرى ليستعيض الظافرون عما خسروه من

مال ورجال : « فهزوا أكتافهم وانحنوا على الارض  
متظلمين » ما هذا إلا رق القرون الوسطى »

وتحولت الى جهة أخرى ، وإلى أخرى وإلى أخرى ،  
وأن توجهت لاقبت أقواماً ينبعث من صدورهما التظلم  
والعويل وتخيم فوقها الاجنحة السوداء . رجال ونساء ،  
شيوخ وأطفال ، مثرون ومعدمون ، عبيد الوراثة ، وعبيد  
العاهات ، وعبيد الامراض ، وعبيد الجهل ، وعبيد  
الاوهام ، وعبيد الطمع ، وعبيد الحاجة ، وعبيد الحياء  
الانساني ، وعبيد الغرور ، وعبيد الكذب ، وعبيد الحسد  
وعبيد الالهل ، وعبيد الابناء ، وعبيد الغرباء ، يزحفون  
جميعاً من كل ناحية كالجحافل الجرّارة وهدير شكواهم  
كهدير العباب المتلاطم . فصرخت جزعاً « من أنتم ، من  
أنتم ؟ » والعبيد ، جميع العبيد ، عبيد الماضي والحاضر  
والمستقبل ، أجابوا كجرق رهيب « نحن العبودية الدائمة : »  
قلت « كلا ، كلا : لقد أغيت العبودية وأنتم أحرار .  
ارفعوا أيديكم لا سلاسل فيها : حرّكوا أقدامكم لا قيود

تثقلها ! » فقالوا « السلاسل والقيود أقل رموز العبودية  
 هولاً . القيود في دمائنا وأهلنا وأوطاننا . القيود في  
 رغباتنا وحاجاتنا . القيود في بشريتنا » فصرخت بملء  
 صوتي « أقول لكم أنتم أحرار ولا عبودية في القرن  
 العشرين ! » فقالوا « اذا محيت من العبودية صورة رُمِست  
 أخرى لأن أصل العبودية باق على كر الدهور . نحن  
 العبودية الدائمة . نحن أودية الحياة المحوّفة عند أقدام  
 الرواسي »

واختفت الجماهير في لحظة فوجدتني مقلّبة صحائف  
 هذا الفصل وقد وقفتُ أقرأ كلمات الاستهلال « من  
 عجائب الطبيعة وضاعها النقيض بجوار النقيض . . . ما  
 أقامت ارتفاعاً الا أوسعت تخومه تجويفاً . . . »



## الديمقراطية

استعرضُ ما شئتُ من فصول التاريخ الطبيعي تجذُّ بين الحيوان والحيوان مصارعة مطردة ، وبين النبات والنبات مقاتلة سرية أو علنية بلا تباطؤ ولا مهادة . ومثلها في تاريخ علم طبقات الأرض : فهنا الصخور والمعادن تزايد وتتناقص ، وهناك تراجعت الأمواج في محيطها فاستحات أرض غارت تحت قلب الأواذي مدينة آهلة . ومثلها في تاريخ الفلك حيث تتكوَّن عوالم وتزول عوالم . وليس التاريخ البشري ليختلف عن تلك التواريخ . غير أن الإنسان يمتاز على سائر الكائنات بالعقل والغريزة الاجتماعية ، فهو يطبع كل ما يقتحم من خطر ، ويُسهر من حرب ، ويركب من هول بطابع هاتين الميزتين . ولمَّا كان تنازع القوى الطبيعية ينتهي دوماً بصعود

الغالب وهبوط المغلوب كانت نُظُمُ الإنسان ومبادئه  
وأحزابه أبداً في ارتفاع وانخفاض

لم يهتدِ زعماء الإصلاح إلى أنظمة سياسية غير الثلاثة  
التي ذكرها أرسطو وهي : الملكية أو حكومة الفرد ،  
والارستقراطية أو حكومة الامثال ، والديمقراطية أو  
حكومة الشعب . وأن دانت المدنية المتأخرة بالديمقراطية  
فإن جلّ المدنيات المتقدمة — إن لم يكن كلها — نما  
وترعرع ثم توارى في حضن الملكية . الآن الشعب  
الرازح تحت أثقال العبودية كان في غيابات جهله مدفوناً ؛  
الآن تلك المدنيات شرقية ، وشعوب المنطقة الحارة  
أقرب إلى الملكية لميلهم إلى عدم التفكير وثاقلهم عن  
حمل المسؤولية — كما يزعم المؤرخون ؛ الآن الأمة في  
دورها الابتدائي تحتاج إلى سيد احتياج الطفل والقاصر  
إلى معلم ومرشد ؛ ليس البتة بالأمر اليسور . وإنما ما  
يتحتم البتة فيه ، بعد نظرة سريعة في المدنيات البعيدة ،

هو أن تلك الشعوب لم تكن عقيمة في ظل الملكية بل أنتجت ما لا يزال نستفيد منه حتى في هذه العصور - عصور الابداع المتواصل

فمدينة مصر العظيمة تكونت في عهد ست وعشرين أسرة مالكة يوم كان فرعون سيداً مطلقاً يسن القوي بن وينفذها ، ويسهر على الراحة والامن ، ويسعى في تنعيم البلاد وتجميلها ، وإليه مرجع الامور الدينية والمدنية جميعاً . فأسفرت تلك الحضارة السحيقة عما زلنا نعجب به واستوحيه من بدائع هندسية ، وفنون إدارية ، وفلسفة روحانية

أما الحضارة الكلدانية الآشورية فكانت عظيمة في هندستها عظمها في علمها . لأنها مع تلك الاسوار الضخمة ، والابنية الفخمة ، والحدائق المعلقة المحسوبة من العجائب السبع في القدم - جاءت بفنون الحرب وما يتبعها من تدريب الجيوش ، وحفر الخنادق ، وخذ الاراضي ، واختراع مركبات الهجوم والدفاع ، وأساليب التدمير النظامي ،



وإعدام الأسرى ، ونقل المعدات والأسلحة . هذا من جهة .  
 وكانت عاكفة من جهة أخرى على التمرين العقلي ، والبحث  
 الفكري فوضعت القواعد لعلوم الحساب والفلك ، وأوجدت  
 المكييل والمقاييس والموازين الأولى ، وميزت بين  
 السيارات والثوابت ، وأحصت كسوفات الشمس  
 وخسوفات القمر ، وعينت دائرة البروج مسمية كلاً من  
 علاماتها باسمها ، ووقتت أجزاء السنة ، واخترعت الساعة  
 الشمسية . وهي التي وضعت أصول التنجيم ، وكشف طوابع  
 السعد والنحس ، وتركيب التعازيم والتعاويد والطلاسم  
 والتمائم والحماثل وعقاقير الغرام

أما اليهود فمعروف مجدهم الحربي في عهد داود ومجدهم  
 التجاري في عهد سليمان ، فضلاً عن أنهم حبوا العالم  
 بكتاب التوراة الجليل

وأحدث الفينيقيون فن سلاك البحر وما يجره إليه  
 من استعمار ، وتجارة دولية ، وصناعة تمتد تلك التجارة .  
 فأنشأوا المصارف في الانحاء المختلفة وأذاعوا مع مدنيّتهم

مدنية كل بلاد يرودونها ، ونشروا مع مصنوعاتهم  
الابجدية التي اختزلوها من الهيرغليفية ، وأساليب المعاملة  
المالية والاقتصادية ، وعلم مسك الدفاتر

ولما قام الفرس يسطون شوكتهم على العالم الشرقي  
ويخضعون الشعوب المغلوبة لصولجان ملكهم اقتبسوا  
عن الاقوام زبدة حضاراتهم فجمعوا بين الادارة المصرية ،  
والهندسية الاشورية ، والعلوم الكلدانية ، والبحرية  
الفينيقية متوسعين في التصرف والتكيف ليطبعوا  
تلك المدنية المختلطة بطابع فارسي . وقد بدأ بهم  
تأثير الآريين - وهم من أصل آري - في التاريخ المعروف  
وأخص ما جاءوا به حكمة زرداشت القائلة بحرب بين عنصر  
الخير ارمزد ، وعنصر الشر اريمان - حرب تبقى الى  
منتهى الزمن حيث يتغلب عنصر الخير فيعمُّ النور والحقيقة  
كذلك في الشرق الاقصى كالصين مثلاً حيث شيد  
السور الأكبر قبل المسيح بأربعة قرون ، وحُفرت  
الترعة الكبرى في القرن التالي مما يدلُّ على تقدُّم الهندسة .

وقد عرف أبناء مملكة «ابن السماء» علومًا وفنونًا جمة كالكتابة ، ومبادئ علم الهيئة ، واخترعوا الحكّ (البوصلة) والمطبعة والبارود ، وتعلّمت جدران معابدهم في الفضاء ، وكست الحرائر النفيسة الرجال منهم والنساء ، وشربوا الشاي في فناجين الصيني الثمين أيام كان الغرب في همجية قصوى . واذا أخذنا ببعض ما وصل إلينا من كتاب كنفوشيوس المدعو «تشو — كنج» علمنا ان مبادئهم الاخلاقية من عبادة الآلهة وحب العائلة واحترام الموتى الخ . لا تقلُّ جمالاً عن اسمى المبادئ المعروفة لدينا وقد تأثرت اليابان في القرن الرابع ق . م . بمدنيتيّ الصين والهند كما تأثرت أوروبا فيما بعد بمدينة اليونان واللاتين . وبعد كفاح عنيف بين المولى والاشراف ، يشبه كفاح الارستقراطية والملكية في القرون الوسطى ، اعتنق ذلك الشعب الشرقي المتوقّد مدينة الغرب الحديثة بأكلها وصار ، وهو القزم في عالم القياس ، يخطو خطوات جبار في عالم التقدم والرقىّ

كذلك كانت الملكية حسنة العائدة في القرون الوسطى مع شارلمان . واذا ماشيناها الى أيامنا مع بسمارك - وهو أكثر ملكية من الملك ، كما يقولون - ومع الامبراطور غليوم الثاني وجدنا ان المانيا في عهد هذه القيصرية الحربية المطلقة جرت خلال نصف قرن شوطاً أجفلت له الدول قاطبة

على ان يقع الظلام الواسعة تحاذي خيوط النور في تاريخ هاتيك المدنيات التي لم تكن تحسب حياة الفرد حساباً ، وانما خلّدت بعدها أسماء أشخاص اشترى عظمهم بدماء الجماعات وجثث العبيد



ثم حصحص بصيص الكرامة الانسانية في بلاد اليونان التي تناولت قبس الحضارة من يد الفرس بعد ان تغلب ملتيادس على داريوس في مرج ماراثون ، وأغرق ثمستوكليس اسطول العجم في خليج سلامين . فأنشأ اليونان يكرّرون أصول تلك الحضارة ، وينقونها ،

ويرتبونها ليجعلوها ترضي الذوق منهم والعقل ،  
 وهم الفنانون والفلاسفة قبل كل شيء . تحبوا وطنهم في  
 قرنين اثنين بصيغ جديدة في القانون والعلم والفن  
 والفلسفة . وهناك أخذ الفرد يعرف حقوقه وواجباته .  
 هناك أشرق فجر الديمقراطية ولم تكن الحروب المتتابة  
 لتُظلمه ، ولا زحف الرومان وظفرهم ليلاشيه ، بل ظلت  
 أثينا المغلوبة مهذبة العالم

لم تقم في روما حكومة ديمقراطية محضة . ويرى  
 پوليبس المورخ اليوناني ان النظام الروماني كان مزيجاً  
 بديعاً من الملكية والارستقراطية والديمقراطية . غير ان  
 العنصر الديمقراطي كان كبير النفوذ ، راجح الشوكة ، بعد  
 ان صارح الطبقات العليا فتساوت جميع المراتب في  
 الخضوع لسيد واحد هو قيصر . وكما كان العالم القديم  
 شديد الإعجاب ببسالة الجيوش الرومانية ، كذلك كان  
 الإعجاب بالوحدة الامبراطورية من الشدة بحيث بقيت  
 تلك الوحدة مثلاً أعلى تنشدُ الملوك في العصور التالية .

فأقام شارلمان دولتهُ على منوالها ، وطمع نبولايون في  
إعادتها الى الوجود بعد ذكرِ العصور

شُطِرَت دولة الرومان في آخر القرن الرابع للمسيح  
شطرين: امبراطورية الغرب وعاصمتها روما، وامبراطورية  
الشرق وعاصمتها بيزنطية (الاستانة اليوم) . ولم يُطلُ حتى  
تدفقت الشعوب الاسيوية واشتركت مع شعوب زحف  
من أوربا الشرقية والمتوسطة ، فتبارى المغول والسلاف  
والجرمان في الاغارة على روما واكتساحها وايساءها  
تخريباً وتدميراً زمناً يناهزُ قرناً. وطفقوا بعدئذ يفتبسون  
عادات الامم المغلوبة وقوانينها ، فألفوا منها نظاماً قام  
عليه فيما بعد التشريع الاقطاعي

وتجاذبت السياسة في القرون الوسطى نزعتان :  
الوحدة الدولية أو المركزية ، والتخصيص القومي أو  
اللامركزية . فمن قائل باخضاع الشعوب وتوحيد قيادتها  
كالامبراطورية الرومانية ، ومن قائل بتوزيع القيادة  
واطلاق كل أمة تنظرُ في أمورها وتنمي مدنياتها

وفقاً لمطالبها القومية وممكناتها الطبيعية . فتغلّبت النزعة الأولى بصيرورة شارلمان إمبراطوراً على الغرب ، وهو الذي عهد إلى الإشراف بإدارة المقاطعات تحت مراقبة مفتشين اختصاصيين -- على أن يكون إليه مرجع الأحكام جميعاً حتى في الأمور الدينية . وسادت بعد ذلك النزعة الأخرى يوم تقاسم الدولة أحفاده الثلاثة في معاهدة فردون ( في منتصف القرن التاسع ) ، التي أوجدت كلاً من ممالك فرنسا وألمانيا وإيطاليا ذات كيان سياسيٍّ مستقلٍّ . ثم تناولها النظام الإقطاعي في القرن العاشر فظلت إلى القرن الثاني عشر عجاكة دويلاتٍ وأماراتٍ ودوقياتٍ وكونتياتٍ لا عداد لها ، وبين صاحب الأرض والرفيق تبادل حقوق وواجبات تتنوع بتنوع الأمزجة الشخصية والعادات المحلية . والمرجع النهائي إلى الملك الذي لم تقم فوق إرادته غير إرادة الله

وكان حجر الزاوية في صرح تحرير الأمم الحديثة تلك البراءة الملكية التي نالها الأنجليز من ملكهم

في مطلع القرن الثالث عشر وقد منحهم مبادئ الحرية  
 الدستورية التي ستكفي الاحوال منذ الآن فصاعداً  
 لتنشرها في جميع أقطار الغرب . من تلك الاحوال أن  
 البرابرة عادوا إلى التفجر من مجاهلهم كما فعلوا منذ عشرة  
 قرون فتدفقت سيولهم على الشرق والغرب ، واكتسح  
 التتر فيما اكتسحوا الدولة البيزنطية — تلك الدولة  
 التي كان لجأ إليها أسرى عناصر الدولة الرومانية المهورة  
 وأجملها . ومن هذه الكارثة العالمة الكبرى ، ومن  
 اختلاط الشعوب وامتزاج المدنيات تكوّنت حضارة  
 جديدة ازدهرت على الاطلال والانقاض كما تنبت  
 الازهار في ميادين القتال وعند زوايا القبور . ذلك  
 أن البيزنطيين عادوا بكنوزهم الفكرية والفنية إلى ايطاليا  
 فالتقوا فيها شرارة ما لبثت أن شبت نارا امتدت منها  
 اللهب في انحاء الغرب فخلقت فيه حياة جديدة وروحاً  
 جديداً — وذلك هو عهد الانبعاث أو النهضة

انتعشت الفنون والآداب ، واستنارت الافكار ،



وتقدمت العلوم ، واكتشف كولبس القارة الامريكية .  
فأدركت العقول من العالم صورة غير التي رسخت فيها ،  
والتفت الناس إلى كرامة الفرد وأهليته وأخذ الاجتماع  
الحديث يتمخض بمبادئ تنافي مبادئ الاجتماع القديم .  
وشُفعت هذه وغيرها من عناصر « النهضة » بثورة دينية  
بدأت في المانيا بزعامة لوثر . وكانت تلك الثورة ابنة النهضة  
الفكرية وحليفها إلا أنهما افرقتا بعد حين ، وتسرب  
الاصلاح الديني إلى حيث لم تصل النهضة الفكرية ،  
فكثُر أتباعه في المانيا وسويسرا وفرنسا واسكتلندا  
وانجلترا . ولئن انتج معارك دموية فظيعة فقد ساعد في  
تحرير الفكر لانه اطلقه من القيود الدهرية ، وأظهر إمكان  
النقد للفلسفة الدينية فسَمَت بذلك قيمة الايمان نفسه .  
لأنَّ ايماناً يمتنُّ ويرسخ بعد الامتحان بحكِّ النقد العلمي  
خير من ايمانٍ يقوم على الجهل والوهم والتسليم . واختراع  
المطبعة وسهولة الطباعة يسَّرا إذاعة الآراء بين أهل البلد  
الواحد وشعوب البلاد الاخرى

وبينا نظام الاقطاع يسود في المانيا وغيرها من بلاد الغرب ، وبطرس الاكبر وخليفته كاترينا العظيمة يحولان روسيا من مملكة شرقية إلى امبراطورية ذات صبغة غربية — إذا بسويسرا عاكفة على تحسين نظامها الجمهوري الذي ساعدها بعدئذ نابليون على التمتع به في أكمل حالاته . وإذا بانجلترا تعدل دستورها وتخطو به خطوة جديدة في ربوع الحرية فلم تنجح في ثورة ١٦٤٨ ولكنها نجحت سنة ١٦٨٨ دون هدر قطرة دم واحدة . وانتهت المناقشات السياسية مع زعم الملكية بتناول حقوقها من الالهية ، وتفرغت الحكومة للشؤون الخارجية فاقامت هذه الامبراطورية التي لا مثيل لها في التاريخ المشبوت . وسارت في طليعة دول تديرها بقبس دستورها ومضى الفلاسفة والمصلحون يستقون من منهل حريتها . واذا بفرنسا تفوز بالوحدة الوطنية في عهد لويس الرابع عشر . إلا أن الاهالي كانوا في استياء من انقسام الامة الى ثلاثة أقسام : قسم الاكليروس ، وقسم الاشراف ، وقسم

غير الاشراف . في استياء لان هناك جماعة تتمتع بجميع الامتيازات ولا تحمل مسؤولية ، بينما جماعة أخرى ترهقها المسؤولية ، ويضعفها الكدح المتتابع ، وتثقل كاهلها الضرائب . وليس يتساوى الجماعتان في غير الرضوخ لارادة الملك

لم تطل الحال . بل انبثق فجر آراء جديدة في التساهل والمساواة بفضل الفلاسفة والاقتصاديين والانسكلوبيديين ، وظلت هذه الآراء كالشرارة تدنو من بارود السخط العام الذي دوى قاصفاً في الثورة الفرنسية فأعلنت « حقوق الانسان » لازالة ما بين البشر من حدود وفروق . او تقررت سراية القانون عليهم جميعاً من غير ما جور أو تحيز ، ولهم أن يُقلدوا وظائف الحكم والتشريع والقضاء وفقاً للكفاءة منهم والمقدرة . فاذا صح أن فرنسا درست الحرية على انجلترا فانها مع أمريكا أشبعت العالم بفكرة الحرية فتبعت الدول آثارها تدريجاً . لأن الديمقراطية ، وكل نظام آخر يتغير بتغير طبيعة بلادٍ ينفذ

فيها . ولقد جاهد الغرب حتى انه بعد إعدام قيصر روسيا وانهيار عرش المانيا والنمسا ، لم يبق في انحاءه ملكية مطلقة واحدة وأن الديمقراطية عمّت العالم المتمدّن . وإن لم تكن البلاد جمهورية كأمريكا فهي ممالك دستورية كإيطاليا واسبانيا الخ . ولا يعلم إلا الله ما يختفي وراء تلك العروش المترنحة من دسائس البلشفية ، وقنابل الفوضوية ، ومدمرات الشيوعية .



فاذا كانت الديمقراطية هي حكم الشعب ، وتسوية الحقوق والواجبات بين أفرادهِ ، فلا مناص مما يحمل الجماعة على المطالبة بهذه التسوية وذاك الحكم . فأى مُحركٍ ياترى بعث على الغاء الملكية والارستقراطية واحلال الدساتير الديمقراطية محلّها ؟ نعم ان بين القوى الانسانية ترابطاً متيناً ، واختلفاً تاماً ، بحيث ان التيقّظ إذا بدا في قوةٍ لا يلبث ان يمتد فيتناول القوى جميعاً . على ان هذا لا ينفي ان لكلّ حركةٍ باعثاً رئيسياً تنفرّع

منه بواعث حمة . ففي الماضي كان الجيش اليوناني يتألف من الاشراف الذين لم يكونوا ينازلون العدو الا على الخيل أو في المركبات . وقد لاحظ ارسطو ان جيشاً يرجح فيه الفرسان لجيش حكومة ارسقراطية . ولكن الحروب المتزايدة في الداخل والخارج ثلثت صفوف الفرسان أزاء مهاجم عتي . فأرغم الاشراف على تعزيز الجيش بفيالق المشاة من الشعب ، وأمدادها بالسلاح والمعدات ، وتدريبها على القتال والدفاع . فشمع هؤلاء بضرورة حفظ كيان الوطن ، وانهبوا يبتشون في البلاد الثورقة والشقاق حتى ظفروا بالمساواة المدنية والسياسية . كذلك في روما التي لم يكن لها من شاغل سوى الفتح والاستعمار ، واشرافها يربأون بأنفسهم عن التجارة والصناعة والفلاحة وغيرها مما أقبل عليه الشعب فأصبح صاحب الثروة . وتراعى أطراف الامبراطورية ، واحتياجها الشديد الى زيادة جيوشها البرية والبحرية أوجب ضم الشعب الى صفوف الفاتحين والمحاربين . ومنحه من الامتيازات ما لم يطل ان تتمتع

به الأمة جميعاً . فصار لها مجلس نيابي يتكلم بصوتها  
وانقسمت الامبراطورية الى حزبين : حزب الاشراف  
وحزب الشعب كما يوجد في عصرنا الرأسماليون والعمال .  
فكان إن استأثر مجلس الاشراف برأي امتنع مجلس الشعب  
عن التصويت ورفض مساعدته لتتيم الاعمال — وفي  
ذلك صورة للاضراب في هذا العصر . ولم يوفق بين  
الحزبين الا بعد قرن ونصف قرن اذ تنازل الاشراف  
عن الامتيازات السياسية أولاً والدينية بالتالي — لأن  
الوظائف الدينية كانت سياسية أيضاً

اشترك الشعب في الحرب هو إذن مصدر  
الديمقراطية القديمة . وأما الحديثة فمصدرها اثنان متلازمان  
هما : أولاً — الاختراعات الآلية والاكتشافات العلمية  
} وثانياً تعميم المعرفة وسهولة التعليم . ففطن الذين كانوا  
بالامس يذعنون غير متذمرين ، وربما مسرورين شاكرين  
— فطنوا الى أهمية عملهم في هذه الاساطيل التي تمخر

البحار وتُدني ما شسع من الامصار ، وتلك السكك الحديدية التي تشقُّ الأطواد وتطوي القفار وتطوق الكرة بنطاق مكين ، وهاتيك الآلات البخارية والكهربائية والهوائية التي تفيض على العالم النضار وما يمثله من ثروة وتحبو الناس بأسباب الرغد والهناء . وبيننا الثروات الباهظة تقيم السدود بينها وبين الفقر المدقع إذا بالمعرفة تزيل الفروق وتقرّب بين الطبقات . فتنبهت الاطماع العامة وأحدثت في النفوس غليانا أثارها على التقاليد الموروثة ، فنادى الجمهور بالديمقراطية ملخصاً مطالبه في بنتين جوهرين أحدهما سياسي والآخر اجتماعي ، وهما : ان الديمقراطية قائمة على أ كثرية العدد التي يستمد منها القانون قوته ، وانها تقضي بحذف الفروق الاجتماعية ، أو على الأقل بتحويلها إلى أقلها ليتمكن جميع الافراد من إنماء مواهبهم وإظهارها بلا ضغطٍ أو مقاومة

ولقد لمست موجة الديمقراطية شواطئ الشرق

الادنى وأوّل من هتف بها في مصر لطفي بك السيّد، يوم كان بعضهم يطلقون عليه مزاحاً لقب « الفيلسوف الديمقراطي ». ولم تقف المسئلة عند حد المزاح بل هو لاقى من اعتناق الافكار الحديثة مصائب واحتمل سخافات . منها انه يوم كان مرشحاً لعضوية الجمعية التشريعية سنة ١٩١٤ حاربه أحد مزاحيه بما لو فهمه القوم لكان للطفي بك لا لخصمه حجة . قال الخصم « يبقى نائب عنّا ازاي ؟ دا راجل ديمقراطي ! » فارعبت الناخبين هذه الكلمة الاعجمية وأوّلوا معناها بأسوأ ما يتوهمون . بيد أن التغير ناموس الكون . ولم تمض خمسة أعوام حتى صار لمصر الفتاة حزب يدعى « الحزب الديمقراطي المصري » تنتسب اليه فئة من أرقى الشبان المتعالمين في أوربا، العائدين من مدارسها العالية بمعتبر الشهادات ومحترمي الاقاب . وهنا الوقائع التاريخية تقضى بالاعتراف أن اسم الديمقراطية جديد في هذه البلاد ولاكن معناها غير جديد . لان الاسلام كان أبداً ديمقراطياً



المبادئ الديمقراطية الاساليب . وهل من ديمقراطية أنتم  
من أن نرى الملوك يتخذون لهم من الجواري زوجات  
شرعيات ويرفعونهن إلى مراتب الملكات ؟ أو هل من  
ديمقراطية أوفى من أن يخرج من الطبقة الدنيا قوم  
يرفعون بكفاءتهم الشخصية ورجاحة عقولهم فيحملون  
أعظم الألقاب ويقلدون أجل المناصب ؟ ولكن على  
مقربة من هذا التساهل والانصاف تقوم ارساقراطية  
مزدوجة ، لأن موقف الاجير المصري أزاء صاحب  
الارض يكاد يكون - فضلاً عن موقف العامل المصري  
أزاء الممول - موقف الرقيق أزاء الشريف في نظام  
الاقطاع . وكانت الحال على ذلك في سوريا وفلسطين حتى  
الحرب العظمى . أما في لبنان فالديمقراطية نافذة منذ ان  
حوّر النظام الاساسي في سنة الستين

وليس هو الاسلام وحده ، وانما قالت بالمساواة قبله  
البوذية والنصرانية . على أن مؤسسي هذه الاديان جاءوا  
باستثناء واستدراك اذ ذكر بوذا التناسخ وان من البشر

من هم (بذلك التناسخ) أكبر سنًا، وأعظم فضلاً،  
وأوفر طهرًا. وقال السيد المسيح «المدعوون كثيرون  
والمختارون قليلون». وجاهر النبي العربي بأن الله يهدي  
من يشاء. وكيف لا يرى هؤلاء المشرفون على أسرار  
النفوس فروق البشرية تفصل بين هؤلاء الذين يجمعهم  
جامعة الروح العليا؟ فجاءت السياسة تؤيد ما لم تفلح  
في توطيده الأديان ولا فازت بتثبيته حضارة اليونان  
والرومان

وأما الفرق بين الماضي والحاضر فهو أن الديمقراطية  
القديمة قامت على العبودية فظلمت الطبقة السفلى مسخرة  
للأعمال الدنيا والخدمة لتتفرغ الطبقات العليا للحكم  
والقضاء. كان الفرد ينتمى أبداً إلى سيدٍ أو قبيلةٍ أو  
عشيرة (على ما نرى اليوم بين الأعراب أهل البادية وسكان  
الريف). فيفاخر بقوله «نحن» كأن لا رأي له ولا قيمة  
في ذاته منفصلاً عن جماعته. على تقيض هذا العصر ونخر

الفرد فيه أن يقول «أنا» وأن يكون قيماً في نفسه، مجرداً عن أي أحد، وإيّا كان حسبه ونسبه . الفرد اليوم يقوم مقام المجموع، وليست نقابات العمال وشركات التعاون لتثبت غير ذلك . الواحد للكل ، نعم ، ولكن على شريطة أن يكون الكل للواحد . وهي ميزة تفرد بها هذا العصر ولم تُعهد من قبل . وأن قبلناها من غير دهشة فلا تئانحياها . أما مؤرخو المستقبل فسيتخذونها محور أبحاثهم . ويرون فيها ما لا بد أن تكونه : فاتحة عهد جديد



وبعد كل هذه الحربة وكل هذا التقدم ترى هل حصل الفردُ على السعادة المنشودة ، وهل تمّ للمجموع السلام والهناء ؟ هل جاءت الديمقراطية بكلّ ما يُنتظر منها ؟

هناك ميزةٌ تلازم ميزة «الفردية» العصرية وهي طلب التوسّع والاستعباد على الطرز الحديث . مفهوم

أن الأمم الكبيرة تقول برغبتها في انهاض الأمم الصغيرة من جهلها وخمولها ، وتسييرها وإيهاا جنباً الى جنب في موكب الحضارة العظيم . ولكنه مفهوم أيضاً ان هذا القول أسلوب من أساليب البيان السياسي ، وأن تلك الأمم لاخلص لها مع هذا التزامم الدولي والازمات الاقتصادية في غير استغلال المستعمرات وتصريف تجارزتها فيها . وما اذ تعدت المانيا نصف قرن وفاجأت - أوزعموا انها هاجت - أوروبا بالحرب الضروس الأتوصلاً إلى انتزاع ما يمكن انتزاعه من عدوٍ حسبب اندحاره أمراً واقعاً . ولكن المانيا هي التي اندحرت ولو إلى حين ، والشعوب المرجو استغلالها واستنتاج أراضيها بدأت تتحرك وتأبى أن تُستعمر وتُستغل . دع عنك الخطر الاصفر الذي اكتسح الغرب مرتين في مطلع القرون الوسطى وفي آخرها ، وطالما تخوفته أوروبا قبل الحرب الكبرى وما زالت تخشى منه إغارة

جديدة تنجي أشد هولاً وافتك بطشاً

هذه مظاهر الديمقراطية في الخارج . وما حال تلك  
الحكومات في داخلها ؛ أي صنوف المساواة يسري بين  
مراتبها الاجتماعية وبين أفرادها ؛ أزال الفروق من بينها  
ولم يعد فيها صغير أو حقير ؛ يخيل لنا أن أقرب الأمم  
إلى الديمقراطية هي الأمة الأمريكية لقلة ما وراءها من  
التقاليد . فهل حالت المساواة دون ما يقابل به البيض  
السود من ازورار واحتقار ؛ هل حالت الحرية والمساواة  
دون هدر الدماء والتشنيع والتفاضل ؛ إن تلك القدر الهائلة  
التي تغلي فيها جميع عناصر الدنيا ما زال يؤبه فيها لفروق  
الجنسية والثروة والذكاء والعلم والتربية . ما زال يؤبه لتلك  
الفروق بالفعل وإن تقيت بالقول . بل ما زالت الانتقادات  
تملأ صحفهم ، وتعدد الأحزاب يقسم مجالسهم ، وقرب ثروتهم  
القارونية نرى الموز الأقصى والحرمان الوجيع . فإذا  
كانت الديمقراطية الدواء الناجع فما هذا الذي نسمعه من

صخب الشكاية والتهديد ؟ ما هذه البراكين الفائرة ضمن  
أنظمة المساواة التي سُدتْ بدماء الأنام ؟ وما بال موقف  
العمال، زاء أصحاب الاموال يشبه موقف الشعب ازاء  
الارستقراطية في القرن الماضي ؟

سُئل صولون الشارع اليوناني يوم وضع أُسس  
الديمقراطية « أتظن انك أعطيت أهل أثينا أحسن  
نظام ممكن ؟ » فأجاب « بل أعطيتهم أحسن نظام  
يوافقهم ». وقيل انه لم يكن يطمع في نفوذ نظامه أكثر  
من مائة عام . وقال آخرون بل كان يتوقع تغييره بعد  
عشرة أعوام . ويُحسب صولون من حكماء اليونان السبعة  
فلا عجب إذا هو لم يثق من دوام القانون لانه يعلم ، وهو  
الحكيم ، ان طبيعة الانسان فرداً كان أو جماعة ، متبدلة  
متحوّلة متكيفة مع الاحوال ، وأن القوانين توضع  
للأفراد وليست للأفراد بموضوعة للقوانين

وازاء حركات الدول في داخلها وفي خارجها ، ازاء

حرب الأحزاب وسخط المراتب وترئُص الطبقات ، إزاء  
 حاجة المدنية وانتاجها وما تفتنيه من جديد ونحييه من  
 قديم ، إزاء الفروق الجوهرية والكره الطبيعي وضرورة  
 الحرب والمناضلة ، يقف المفكر متأملاً . وإذا تتعالى اليه  
 اصوات الهاتفين وضجيج الغاضبين ، ترتسم في الفضاء  
 أمامه صور الشارعين يكتبون الانظمة ويسنون القوانين  
 متفائلين مستبشرين . فينظر اليهم صامتاً وفي نظره  
 هذا السؤال الذي لا جواب عليه : « أين المساواة التي  
 ندعون ؟ »

## ٥

## الاشتراكية السلمية

ظالما كانت النظريات المجردة والمذاهب الفلسفية  
 مستودعاً لمختلف الآراء يُستخرج منها ما لا يتفق مع  
 صرماها الأساسي أو ما يناقضه . ومن الأدلة على ذلك  
 ان الاشتراكية مُقتبسة من مذهب « هجل » الفيلسوف  
 الألماني . وما الفلسفة الاشتراكية أو المادية الماركسية كما  
 يسمونها أحياناً ، إلا تحريف الفلسفة الهجلية تحريفاً قد  
 يكون مقصوداً ليتلاءم وحجة ماركس الكبرى في ثقته  
 بفوز الاشتراكية التي أقامها على مادعاه المادية التاريخية  
 أو الأساس المادي التاريخي (Matérialisme Historique)  
 وهاك شرح هذه المادية التاريخية التي شاد عليها ماركس  
 عقيدته :



سبقة المصلحون فقالوا بتدرُّج العالم ورُقيهِ بالعوامل  
 الفكرية والادبية والاخلاقية ، فنفى ماركس ذلك ليُثبت  
 ان كلَّ تطوُّر في السياسة والتشريع والاخلاق والفكر  
 ناتجٌ عن التكيُّف الآليّ والتحوُّل الاقتصادي . أي انهم  
 أرجعوا الرقيّ الماديّ الى أصل معنوي ، فقال هو بالعكس  
 وجعل التغيُّر الداخليّ وكل تغير سواء آتياً من التطوُّر  
 الآلي والاقتصادي . لأنَّ مبدع الاحوال ومحدث  
 الانقلابات هو الاحتياج البشري - ذلك الاحتياج الذي  
 يستنبط صنوف التصرُّف أو يستخدم وسائل القوة ليظفر  
 بتنظيم الاجتماع على ما يقضي به الزمان والمكان . فالفن  
 والصناعة على أنواعهما من لوازم الحياة العمرانية وهما  
 يفرضان بتقسيم العمل ، فينتج عن هذا تغاير الوظائف  
 الموجود المراتب الاجتماعية . وتتطوَّر النظم في التاريخ  
 على هذا النمط فتسودُّ كلُّ مرتبة - خلقها الوظيفة  
 طبعاً - في أشد أدوار الاحتياج اليها . لذلك ساد رجالُ

الدين وذوو الشرف الموروث يوم كان الدين كل شيء ، وكان الملك سليل آلهة تخاطب العباد من وراء ستار الهياكل ، وتنفذ الاوامر ، وتسبغ الشرائع على لسان الكهنة والعرفاء . وتسلب رجال الحرب يوم كانت البلاد في خطر ازاء هجمات الغازي لا يرده غير اليد المسلحة بالقوة والنار . وغلب أهل المال يوم استولوا على موارد الخير ومصادر الثروة . أما سيادة الغد فلليد العاملة التي لولاها لوقف اليوم دولاب الصناعة فشلت حركة العمران

هذه هي « المادية التاريخية » التي تضمن لما ركس وقومه تغلب الاشتراكية في المستقبل على الانظمة الاخرى . ثم ان حركة المعاش تدور بالانتاج ، وما الانتاج العالمي الضخم بعمل فرد أو جماعة أو شعب ، بل هو عمل جيش العمال المنتشر في جميع أنحاء الكرة الارضية ينتج الثروة ويعمّن العالم . وهو امام هذا الخير الفائض فقير تعس شاظف العيش ، ضئيل المكنات ، محروم الوسائل ، يعمل ويكدّ وليس بواثق من قوت غده . فاذا كان

الطورُ جديداً ، والانتاجُ جديداً ، والثروةُ جديدة فلماذا  
تظلُّ شروطُ العملِ قديمة؟ وإذا كان الانتاجُ مشتركاً فلماذا  
تكون الاستفادةُ منه فردية؟ لماذا تشتغل الألوف والملايين  
ليتنعم الآحاد والعشرات؟ لماذا تتلامس الثروة والفاقة ،  
والبذخ والعري ، والعلم والجهل ، والسعادة والشقاء؟ إنَّ  
في هذا التناقض رأس الأوجاع الحاضرة ومصدر المشاكل  
الاجتماعية المختلفة . فقام دعاة الاشتراكية يعالجون  
الامراض ويحلون المشاكل انصافاً لبني الانسان وتعزيزاً  
« للمادية التاريخية » . وأنشأوا يكوّنون شركات التعاون  
ويؤلفون نقابات التضامن لمحاربة الأثرة الرأسمالية . حتى  
إذا ما توفرت لديهم القوة الكافية لم تعد الاشتراكية  
حكومةً في الحكومة كما يسمونها الآن ، بل أصبحت  
الحكومة الوحيدة القائمة على أساس المساواة بين الجميع ،  
وحذف فروق الدرجات والمراتب ، وتكسير قيود  
الوطنيات والاديان والثروات والامتيازات

يؤاخذها كثيرون حتى المعجبون بما فيها من المبادئ السامية ، بما يشينها من أوهام ونظريات تحول دون صيرورتها نظاماً شاملاً نافذاً . غير انها تظل عملية في بعض أغراضها . ولكن دعنا حيناً من العمليات والنظريات فالاشتراكية أقدم من ماركس وهجل والقرن الذي تتابعا فيه . انها موجودة في الطبيعة ، هي الفردية والنظم الأخرى جنباً الى جنب . لقد ابتدأت الوحدات الاثنوغرافية بها حياتها الاجتماعية يوم كان أفرادها في غفلة الفطرة لا يرون ما بينهم من تعاريف الفروق ، ثم تطوّرت الى الملكية فاعداها . ولكن ان اعترى الاشتراكية الكسوف وراء النظم السائدة على تعاقب الغير فقد ظلت الفكرة منها ترود أدمغة الفلاسفة والكتّاب . هي التي أوحى الى أفلاطون كتاب « الجمهورية » فكانت فيه ارستقراطية يتساوى عندها المحاربون والامائل والموالى . وأما طائفة العبيد وما حاذاها من الطبقة الدنيا فتهمة طبعاً في الاعمال الحقيرة ،

غريبة عن الكمال الاخلاقي الاسمي الذي ينزع اليه أهل  
 « الجمهورية » وقد ترابطوا للوصول اليه بروابط  
 الاشتراكية والمساواة . هم جماعة حكام لا يقيدهم متاع الدنيا  
 ولا يربطهم نسب او قرى ، تخلصاً من تلك الانانية العائلية  
 التي تخلق الاسرة فالعشيرة ، فالقبيلة ، فالأمة ، فالوطن .  
 وتتسع هنا وهناك حتى يصير الاحتكاك بين مظاهرها  
 منشأ الخلاف والحروب

ومن تلك الكتب الشهيرة « يوتوبيا » لـ توماس مورس  
 و « مدينة الشمس » لتوماسو كمانلا ، و « اليوتوبيا  
 الجديدة » لويلز الانجليزي معاصرنا الذي ما فتئنا نطالع  
 طلي كتاباته الجامعة بين حقائق العلم وبدائع اخیال مما  
 يشوق المفكرين

ولم تكن الاشتراكية خيالا في الكتب فحسب  
 بل نفذت قانوناً خضعت له جماعات وقفت حياتها للفلسفة  
 أو العلم أو العبادة أو حب الانسانية . منها المدرسة  
 الفيثاغورية في بلاد اليونان ، وجماعة الهشنيين على شطوط

البحر الميت ، والتريث أي زهاد اليهود في مصر ،  
والغنوستيون وكثير من الجمعيات الرهبانية وغير الرهبانية ،  
ذات الصبغة الدينية أو الختفية وراء المظاهر الدينية . ومنها  
في الشرق المزادقة والخوارج والاسماعيلية والقرامطة  
والخشاشون والوهابية الخ . - وان كانت هذه الجمعيات  
الاخيرة أقرب الى الفوضوية منها الى الاشتراكية ، أو هي  
الوسط بينهما . بيد ان الاشتراكية لم تظهر قبل اليوم ،  
كما هي اليوم دستوراً منظماً تنظيماً علمياً دقيقاً في جميع فروعه ،  
يجاهر بغايته الرهيبة التي هي قلب الحكومة ، ونقض  
النظام ، وهدم المجتمع الحالي من أساسه . ليس في بلد أو في  
شعب أو في جنس أو في قارة بل في جميع البلاد والشعوب  
والاجناس والقارات ليقم على الاخرية نظاماً جديداً ،  
ويعدُّ سلطانهُ إلى جميع انحاء المعمور فتخضع لهُ  
الأُمم قاطبةً مترابطةً بالوحدة الاشتراكية الشاملة  
وأخوة المساواة التامة . ان هذه المضاربة الاجتماعية الكبرى

لأول مضاربة من نوعها في التاريخ ، ولا يعادل الضمع فيها إلاّ إقدام أتباعها القائلين بصلاحياتها ومشروعيتها التي يزعمونها المشروعية الطبيعية الوحيدة ، وأن ما عداها تعسفٌ وطغيانٌ واستغلالٌ للإنسان الإنسان

أقول الاشتراكية حاصرةٌ في هذه الكلمة جميع المذاهب المدعوة باسم موجدتها في الغرب ، بل باسم الذين أحدثوا فيها بعض التغيير والتعديل ، وسواها من المذاهب ذات الفروق المهمة ومنها ما يرمي الى اشتراكية الاملاك ورؤوس الاموال فقط ، ومنها ما يعمل لشيوعية رؤوس الاموال وشيوعية استهلاكها جميعاً . لان جميع هذه المذاهب تتفق في المسألة الجوهرية وهي هدم الملكية الفردية وإقامة الملكية الشيوعية . فيمسي الفرد غير مالك بصفته فرداً مستقلاً ، وإن أصبح مالكا من حيث هو جزء من مجتمع تتوزع الخيرات بين أفراده على قاعدة التسوية . أما نزعات طائفي تحقيقها فعلى كثرتها تنقسم إلى قسمين

رئيسيين : أحدهما أقوى من الآخر كثيراً غير أن قوته لا تنفي وجود نذته : وهما النزعة الألمانية الثورية ، أو الماركسية التي انقلبت في روسيا بلشفية ، وموجدتها ماركس العظيم . والنزعة السامية التي يجوز أن تُنعت بالفرنساوية لأن جلّ أهلها أفرنسيون — وإن وجد بينهم من قرب إلى الماركسية ، أو من شغل الوسط بينها وبين دعاة الإصلاح السامي

\*  
\* \*

الاشتراكية السامية كالثورية ترمي إلى تغيير النظام القائم ولكن بوسائل غير حادة . بل بادخال أعضائها في الهيئات النيابية والادارية والقضائية يعدّلون ما أمكن تعديله ، ويكثر عددهم مع الزمن حتى تصبح يوماً أعنة الشؤن في أيديهم . فيسنّون نظامهم وينفذونه دون استباحة أرواح وسفك دماء . واتقد ولدت الروح الاشتراكية الجديدة مع الديمقراطية الجمهورية في الثورة الفرنسية التي استفزت في آن واحد الحماسة الوطنية



وحماسة توحيد جميع الأوطان . وظلت تلك الروح  
 نامية في فرنسا وسويسرا وإنجلترا وألمانيا حتى خطا  
 بها لوي بلان : صديق فكتور هوغو : خطوة واسعة  
 سنة ١٨٣٩ اذ أعلن أن غايتها هي حماية العامل من جور  
 صاحب العمل . وجعله قادراً على الانتاج مستقلاً في  
 ما سماه « العمل الاجتماعي » . وأنشأ برودون بنك التعاون  
 المدعو « بنك الشعب » سنة ١٨٤٩ فانضم اليه عشرون  
 ألف مساهم في ستة أسابيع . ولكن لم يطل ان حكم  
 على برودون بالسجن عقاباً على بعض كتاباته ، فهرب إلى  
 جنيف فهبط بهربه مشروعه . ومنذ ذلك الحين وزعماء  
 الاشتراكية الفرنسية يتعاقبون معدلين من المذهب  
 . لا يتفق مع أحكامهم دون أن يتحولوا عن الغاية  
 الجوهرية وهي القضاء على رأس المال والتسوية بين جميع  
 أفراد المجتمع

وتنضم الى هذا الحزب السامي الاشتراكية  
 الأمريكية وزعيمها هنري جورج الذي لم يجد لازالة

الاضطراب الاجتماعي من وسيلة أفضل من إيقال كاهل  
أصحاب الملك بضرائب تعادل إيراداتهم تقريباً ، كأنهم  
« محصلون » لخزينة الحكومة . على ان تجعل هذه  
الضرائب رأس مال للعمال يستغلونه في معامل اشتراكية  
فتتغطل الصناعة الفردية شيئاً فشيئاً لنقص الايدي  
العاملة . غير أن هنري جورج لم يقل لنا هل يقبل  
أصحاب الملك تأدية تلك الضرائب ، وهل تقبل الحكومة  
فرضها على الذين يملأون خزائنها ؟ واذا هي قبلت ، فهل  
تتنازل عن مثل تلك الثروة لترسم من غير ربي تلك  
الطبقة التي تحاربها في قوتها العظمى ؛ ولو رفضت  
الحكومة ورفض أصحاب الملك فماذا يكون ؟ اليس أنه  
إذا يدوي صوت ماركس الرهيب وتحقق الالوية الحمراء  
فوق جماهير الثائرين ؟



ويصح ان يُذكر في سياق الكلام على الاشتراكية  
السامية « الحزب الاشتراكي المصري » الذي أعلن بروجرامه

في شهر أغسطس المنصرم، فكان مسلماً الى حدٍ أفاض الاستاذ عزيز ميرعم سكرتير الحزب الديمقراطي . من جهة ، وتُخَوِّف لتكوينه المحافظون وعلى رأسهم فضيلة السيد محمد الغنيمي التفتازاني شيخ السادة التفتازانية ، من جهة أخرى . فقامت بين هذه النزعات الثلاث مناقشة اسفرت عن أمر واحد هو أن جميع المتناقشين محقون في ما يدافعون عنه . فالمحافظ محق في محافظته ، والمعتدل مصيب في اعتداله دون أن يكون تطرف المتطرف يستهجن . لأن مذاهبهم هذه ومثبات المذاهب الأخرى وجوه للفكر الانساني تختفي وراء كل وجه منها قسط من الحقيقة ، وأجزاء من كلية الحياة ذات الوف الانحاء والمناهج . فالرأي الواحد يُعبر عن احتياج فرد أو جماعة . وما كانت الحقيقة يوماً محتكرة لفرد ولا الانسانية محصورة في جماعة .

قلت أن الاستاذ عزيز ميرعم قام يؤدب الاشتراكية المصرية ويحثها على « استكمال اشتراكيتها » . ليس بصفته سكرتيراً للحزب الديمقراطي . ولكن بصفته الشخصية

انجرّدة ( وقد يكون في هذا ما يُخطر الحزب الديمقراطي  
 بانفصال أحد أعضائه عنه عند ما تنضج الاشتراكية في  
 هذه البلاد ) . وافد أجاب سلامه افندى موسى أحد أعضاء  
 الحزب الاشتراكي بما يدلُّ على تصميم الاشتراكيين المصريين  
 على المسالمة وعلى ان رائد هم الاصلاح التدريجيّ

« ومع تمنينا نجاحهم ( البولشفيين ) في تجربتهم العظيمة  
 فإننا ننصح بالطفرة وسيكون رائدنا التدرّج والتطور .  
 ولا شك ان الاشتراكية المصرية ستكونسب لونا خاصا  
 بتأثير الوسط المصري والمزاج المصري لا يمكننا ولا نرغب  
 في تعيينه الآن . وانما تأمل انها تسير في خطة تواد الطبقات  
 فيها أكثر من نصيب التباغض . فلا ينبغي أن يفهم الغني  
 من حركتنا أنه خصم لنا نسدد اليه سهامنا . فان الغني  
 والفقر نتيجتان للنظام الحاضر والاشتراكية بانقاصها من  
 حقوق الغني من الجهة الواحدة ستزيد في حقوقه من الجهة  
 الاخرى . فهي ستضمن له حياة خالية من هموم العيش

ولا تكلفه سوى شغل ساعة أو ساعتين في اليوم . وأظن أنه من الممكن أن نقنع طبقة كبيرة ( : : : ) ( ١ ) من الاغنياء الحسني النية بافضلية الاشتراكية على النظام الرأسمالي الحاضر فلا يحتاج الاشتراكيون الى اتخاذ خطة عدائية نحو الاغنياء .

« وأما ما سألنا عنه الاستاذ هيكل عن كيفية تطبيق الاشتراكية على الاراضي في مصر فهذا مما يسهل الجواب عليه : فان في القطر المصري نحو خمسة ملايين فدان مغلّ يشتغل فيها نحو عشرة ملايين نفس . فلو فرضنا أن بضعة من أغنياء أمريكا ذوي الملايين ألفوا شركة واشتروا جميع أراضي القطر المصري أكانوا يرضون بتشغيل عشرة ملايين عامل لاستغلال هذه الارض ؟ أما كانوا يكتفون بمليون عامل أو أقل من هذا العدد فيستخدمونهم بواسطة آلات بخارية عظيمة للزرع والريّ والحراث والحصيد ،

( ١ ) هذه العلامات الثلاث مني - ميّ

فهذه الشركة المفترضة هي الحكومة الاشتراكية . فان  
القطر المصري يكفي زراعته نصف مليون عامل تقريباً  
إذا اعتمدنا في زراعته على الآلات وفرضنا أنه عزبة  
واحدة يملكها مالك واحد

« ومن البديهي اننا في نظام اشتراكي لا نخصص  
نصف مليون عامل للزراعة ونترك سائر الامة في بطالة  
اجبارية ، فان تعميم التربية سيمنع عدداً كبيراً من شباب  
الامة وصبيانها عن الشغل . ثم ان زيادة السكان المطردة  
ستضطرنا إلى الصناعة وهذه ستتطلب عدداً كبيراً من  
العمال لا يمكن الحصول عليه الآن لان الزراعة بكيفية  
ممارستها الحاضرة تحول بينهم وبين مزاولة أي عمل آخر  
» فالنظام المنشود للاشتراكية الزراعية هو النظام  
الميكانيكي ، وبواسطته يخف عبء العمل الزراعي ويتحرر  
عدد كبير من العمال يستطيعون بذلك الشغل في المصانع ،  
وطريقة الملك الفردي الحاضرة تحول دون الانتفاع

بالآلات الحديثة. والفرق بيننا الآن وبين نظام اشتراكي هو الفرق بين رجل يعتمد في رحلته على ركوب الجمل وآخر على ركوب القطار. فزيادة الانتاج التي تطلبها زيادة السكان لا تكون إلا باستعمال الآلات الكبيرة وهذه لا يمكن استعمالها إلا في نظام اشتراكي « (٢)

هذا ما يقوله الاشتراكي المصري الذي حذا حذو هنري جورج وسائر الاشتراكيين المسالمين ، ابتداءً من سان سيمون الى أوسيب لوريه ، في الاستكانة عند أملة بنجاح مساعيه ولم يزد . ترى لو لم تقنع تلك « الطبقة الكبيرة من الاغنياء » فماذا يحدث ، أوتراهم لم يزيدوا لان السكوت أفصح من الكلام في بعض المواقف ،

## ٦

## الاشتراكية الثورية

خرجت الاشتراكية الثورية من دماغ ماركس كتاباً بين سطوره بقعُ الدماء ولهبُ الحرائق ونارُ المقدوفات — كما خرجت بالاس أثينا آلهة الحرب والحكمة عادة مدججة بالسلاح من دماغ أبيها جوبيتر إله الآلهة . ذلك الكتاب المدعو « رأس المال » Das Kapital هو الإنجيل الاشتراكية الحديثة ، ولم يبدعه مؤلفه إبداعاً بل استخرج أعم عناصره من الفلسفة الألمانية ومن الاشتراكية الفرنسية . يضاف إليها تأثير الجمعية الشيوعية البركسالية السرية التي كان ماركس هو ورفيقه أنجلس ينتمي إليها بعد إبعاده من باريس ، وإلى الجمعية الديمقراطية الدولية العامة . فضلاً عن كتابات الاقتصاديين الإنجليز وتطور حركة



العمال في إنجلترا، التي ابتدأت بتأثير روبرت أون ( Owen )  
مؤسس الاشتراكية الانجليزية وهو رجلٌ وقف ثروته  
البالغة اثني عشر مليوناً لتحقيق نظرياته

ماذا ينبغي ماركس وأصدقائه أنجزوا ولا سال وويتلنج  
وغيرهم المنادون بالجمهورية الاشتراكية ، الموجدون بين  
الطبقات حرباً ما فتئت تذكيها بلاغتهم النارية والتي  
ستفضي حتماً الى زلازل اجتماعية فظيعة ؟ ما هي غايتهم من  
الغاء فروق الوطنيات ، ومحو حدود البلدان ، وتكوين  
اتحاد العمال في جميع الاقطار ؟

الاقتصاد دولابٌ تدور به آلة الحياة الاجتماعية  
بفروعها ومظاهرها المختلفة . وليس الاقتصاد هنا يعني  
التوفير ولكنهم يريدون به حسب الاصطلاح الحديث  
طريقة الانتاج والتبادل . ينتج المرء ما يستطيع انتاجه  
ليبدله بما يحتاج اليه من ضروري ويصبو اليه من كمالي ،  
فيتمكن بعدئذٍ من الاستمرار على الانتاج في نوع العمل  
الذي يجيده . ولقد كان التبادل يحصل مباشرة بلا وسيط

في الجمعيات الاولى ، غير ان تقدم الحضارة جعل المال من الاهمية بحيث أصبح واسطة التبادل الوحيدة التي يستحيل بدونها الحصول حتى على أهم الضروريات . وتفنى الناس في حشده لا سيما عن طريق الصناعة التي ارتقت آلاتها ارتقاءً عظيماً . واستولى أهل رأس المال على منابع الانتاج فصاروا لا هم سوى سرعة الانتاج والانتاج بأبخس الأثمان لتزداد الثروة بالارباح السريعة . وهذان الشرطان متوفران في استخدام الآلات . ففقد العامل بذلك مرغماً على قبول أحد اثنين : فاما الموت جوعاً لضيق ذات اليد ، واما العمل بأقصى الشروط ليعيش عيشة كاهن كدٍّ وحرمان وظلام



لقد مرت الامم والجماهير في قرون العبودية فلم يبق منها على الارض غير آثار الملكية والارستقراطية ، حتى هبّ الشعب في الثورة الفرنسية يطالب بالمساواة مفاجئاً المستأثرين بالسيف والنار . وانبرى نابليون

الديكتاتور يلقي بذور الثورة أينما حلّ ويوسع من دوائر الحرية ما يَسَّرُ انبساط شوكتِهِ . قبلَهُ لم يكن يحاربُ إلاّ الأشراف ، ولم يكن يدخل البلاط إلاّ الأشراف ، ولم يكن يُرَشِّحُ للمناصب الرفيعة إلاّ الأشراف . فرفع الصغار من ذوي الكفاءة إلى أعلى الدرجات ، وجعل من ذوي البسالة والمهارة الحربية مارشالية وقواداً عظاماً ، وخلق ألقاب الشرف للممتازين بمواهبهم الطبيعية . فشعرت الأمة بما فيها طبقة العمال بأن الحرية السياسية التي اعترف لها بها سنة ١٧٨٩ متحققة

بيد أن النظام الديمقراطي قصر على تعريف المساواة بين الطبقات والأفراد في الحقوق وامام القضاء ، ونادى بالحرية النظرية التي تحرّم الاستعباد النظامي على ما كانت تجوّزه القوانين في الماضي . ولكنه فاته أن هناك عبودية اقتصادية أشدّ هولاً من أية عبودية سياسية . وماذا عسى تنفعُ الحرية السياسية من ليس لديه ما يؤهله للتمتع بها؟ عبودية الأمس ضمنت له الغذاء والسكن والكساء .

أما حرية اليوم فسلبته هذا الضمان ولم تُنله ما يحتاج إليه . وما كانت قيمة المرء الاجتماعية والسياسية إلا لتوازي قيمته الاقتصادية أي ما يملكه من مصادر الثروة . لأن الذي لا شيء عنده عبد لمن عنده شيء . وهو يواصل العمل ساعات طويلة ، ويفني قواه في الكد والاجهاد . فلماذا يبقى عبداً ؟

يبقى عبداً لأن الحكومة اهتمت الى اليوم بالانتاج وأهملت التوزيع . وليس النقص في قلة الانتاج فهو مخوف ، الا ان سوء التوزيع يمنح قوماً فيصبحون موالى ، ويحرم قوماً فيمسون عبيداً . أولئك يتنعمون ولا يعملون ، وهؤلاء يبذلون حياتهم في العمل بلا أمل ولا عزاء . لذلك أشهر الاشتراكيون الحرب على جميع القوانين السارية لينياوا الذين حررتهم السياسة في ثورة الامس الحرة الاقتصادية في ثورة اليوم ، وذلك بالتوزيع على الجميع سواء بسواء . فالتوزيع اذن قلبُ قلب النظام الاشتراكي وغاية غايته . ولما كان توزيع نتاج العمل ذاته غير مفيد لمنتجه

في كل الأحوال فقد جعلوا التبادل على قاعدة ماسماه  
 ماركس « الوقت الاجتماعي ». أي عدد الساعات المستهلكة  
 لإنجاز العمل . وحذفوا المال واسطة الاحتكار والاستغلال  
 وعامل الطغيان الأكبر . على مايرون . وقضوا على الثروات  
 الفردية وما لها من مصارف . وشركات مالية .  
 وصناديق توفير ، وبورصات الخ ليوحدوا الثروة في يد  
 الحكومة أو المجتمع . وشعارهم هو هذا « لكل ما يخصه  
 ولكل نتيجة عمله » . ولكنهم عاموا ان مثل هذه  
 المساعي لا تنجح في بلد واحد سوى نجاح وقي . وانه  
 لا تلبث الحكومات الاخرى أن تزام الحكومة  
 الاشتراكية في أسواق التجارة وتطالب عليها فتقضي على  
 أنظمتها وتطارد مؤيديها حتى الهلاك . ولهذا قرروا نشر  
 دعوتها في جميع أنحاء المعمور ل تتم بها تلك الثورة الدولية  
 الكبرى والانقلاب العام العظيم الذي تنبأ عنه كروبتكن  
 الروسي منذ أكثر من ثلاثين عاماً . فقاموا ينادون

باستقلال الشعوب وحريتها في تقرير مصيرها ، وما هذا الاعتراف إلا تمهيد للاتحاد العالمي الشامل تحت راية الشيوعية المطلقة



أما الوسطة لبلوغ هذه الغاية فهي القوة . لأنهم يرون ان النظام الحاضر يحول دون الاصلاح المنشود بمحافظته على الحقوق الفردية وتأييده امتيازات أصحاب المال والعقار الذين يملأون خزائنه بالضرائب . والالانية الحيوية تحمل هؤلاء وذاك على استخدام كل وسيلة ممكنة للاحتفاظ بملكاتهم . فالقوة وحدها تغلب عليهم . وتنظيم هذه القوة أنشئت شركات التضامن ونقابات التعاون ، وغرضها الدفاع عن حقوق العمال حتى اذا آن الاوان قاموا بالحركات الثورية المطلوبة . وقد استحسن ماركس الديكتاتورية لتحويل هذا الانقلاب الواسع ما يحتاج اليه من الشدة والاتقان ، بل رأى أنه يتحتم حصر الامر والنهي في يد

زعيم مطلق . ولا شك ان ماركس استنبط المنصب  
الديكتاتوري لموافقته لفطرته ومكانته هو الذي كان  
ديكتاتور الاشتراكيين يوم أسس الانترناسيونال<sup>(١)</sup>  
الاولى . وانما انفض الاشياخ يومئذٍ من حوله لمغالاته  
في الاستئثار والطغيان

بين الناس اليوم شعور قوي بأن اليهود هم الذين  
ابتدعوا الاشتراكية وما والاها ، انتقاماً من الشعوب  
والاجناس والاديان التي حملت عليهم واضطهدتهم  
عشرين قرناً لم يكن لهم فيها حرية ولا وطن ولا كيان ،  
وسعيّاً لنشر سلطانهم على العالم . فعملوا في تأسيس  
الانترناسيونال التي سُميت المؤتمر الدولي الاحمر ، وأقاموا  
ازاءها في فيينا تحالف الممواين الذي دُعي المؤتمر الدولي

---

( ١ ) اذا جاز الكلام في الاصطلاحات اللغوية خلال هذا  
البحث العمراني قلت ان من الكتاب من سمي الانترناسيونال مؤتمر  
العمال الدولي وغير ذلك . وهو اسم قد لا يفي بالمراد تماماً فضلاً عن  
طوله . فلماذا لا تقبل كلمة الانترناسيونال بذاتها ما دامت مقبولة في  
جميع اللغات المعروفة ولفظتها الواحدة تفي بالمطلوب منها دون غيرها ؟  
ونصيغ منها نعتاً فنقول « القوانين الانترناسيونالية » الخ

الذهبي — ذلك ليقبضوا على ناصيتي القوة في المعمور :  
 وفرة العدد ورأس المال . ويستشهد الناس على صدق  
 شعورهم بأن كبار زعماء البلشفية من اليهود ، كما ان كبار  
 الممولين في العالم يهود يمدون البلشفية بالمساعدة السرية رغبةً  
 في نشرها وبقصد ابتزاز المال أيضاً . لأن الثورة العامة  
 مضاربة مالية وسياسية فيحاء تروج سوقها الصحافة  
 العالمية بلهجات متناقضة — وزعماء الصحافة يهود كذلك  
 فيدافع اليهود عن نفوسهم قائلين ان رئيس الشركة  
 الصحافية الكبرى المستر استون ليس يهودياً ، وأن  
 « شركة الانباء البرقية الاميركية » ليست اسرائيلية ، وان  
 مستر هرست صاحب سلسلة الصحف والمجلات ليس  
 يهودياً . وأن اللورد نورثكليف قطب أقطاب الصحافة  
 البريطانية ليس يهودياً ، ومثلهُ صاحباً (الشيكاغو تريبيون)  
 وغيرها كثيرون . وإذا كان هناك ممولون من اليهود  
 فلماذا لا يذكر حيالهم روكفلر ومورغن وريان ودوبون  
 وهنري فورد وويرهاوز ، وهـ ألفا سوام من الاميركان



أصحاب الملايين الذين ليسوا يهوداً ، وإذا كان بعض زعماء  
 البلشفية يهوداً فالوف من صغار تجار اليهود فقدوا أموالهم  
 ولاقوا حتفهم في الثورة الروسية ، بعد ما ذاقوا في عصر  
 القيصرية من الاهانة والعذاب والتجريد من الحقوق  
 السياسية والقضائية. فإن هم ثاروا فانما فعلوا كمرتبة اجتماعية  
 وليس كطائفة دينية . وإذا كان تروتسكى وسقرولوف  
 وغيرهما من البلشفيين يهوداً فليس في لنين وتشيتشرين  
 وكراسين وكلينين قطرة دم اسرائيلي . واكثر قادة  
 المنشفيك . أعداء البلشفيك الالقاء ، يهود . ومثلهم زعماء  
 الديموقراطية الدستورية المنافسة حكومة السوفيت. وان  
 البلشفيين يكرهون اليهود لانهم ينظرون اليهم كمحافظين  
 على النظام الرسمالي . وان اليهود محبوبون للقانون وهم في البلاد  
 اللاتينية ، حيث تراعى الحرية الدينية ، أقرب الناس الى  
 حفظ النظام وأشدّهم تعلقاً بالعائلة والفردية والملكية  
 ذكرتُ هذا الاتهام والدفاع لانه نقطة ذات  
 أهمية خاصة في هذا الاضطراب الشامل ، ليس استجلاؤها

بالممكن في الحاضر ولن يكشف أسرارها إلا المستقبل



بينما كانت دول الحلفاء قائمة في وجه دول الوسط تهتف باسم الديمقراطية والحرية قال الكونت أو كوما، أحد كبار ساسة اليابان، ان المدنية الأوروبية التي يزعم الحلفاء الدفاع عنها آخذة في التهدم والانهيار تحت معاول الاشتراكية . نعم، العالم يرى اليوم انتهاء طور وابتداء طور آخر . وقد قامت الديمقراطية المتطرفة تكتسح الديمقراطية المعتدلة التي لم يطل عمرها أكثر من قرن واحد بعد قرون الملكية . لان الأمم نضجت بسرعة في هذا العصر ، ولا شك إن سرعة النضج ستزيد في العصور المقبلة

لا بد أن تزول حضارة اليوم كما زالت كل حضارة سبقتها ، ولا بد أن يحور النظام الحاضر كما حور كل نظام قبله . ها ان ظل الاشتراكية يمتد فوق هذا الجيل ونجد آثارها حوانا اني نظرنا ففكرنا . لقد انتشرت شركات

التعاون في كل مكان حتى في أقاصي اليابان ، وهبت  
الشعوبُ تتسابقُ في الانتاج الصناعي وفي التهذيب  
الفكريّ جميعاً . واهتزت الاجناس لعاطفة الكرامة  
القومية فعقد حتى زنوج افريقيا مؤتمراً في لندن  
لتقرير المطالبة بما تطالب به أرقى أمم الجنس الابيض  
من سيادة قومية واستقلال . ولقد كثرت جيوش العمال  
العاطلين في الشرق والغرب ، وتعددت فتن الشيوعيين  
المهاجرين صرح الحضارة بفؤوس الثورة والعصيان . ومهما  
جد النظام الحالي في الترميم فالبناء متداع سيسقط في  
مستقبل قريب او بعيد . لأن روح الاشتراكية انطلقت  
إلى أعماق النفوس واستقرت فيها منها المطامع والامال

يا للمطامع والآمال المتشابهة في قلب الانسان ؛ عند  
كل انقلاب وكل تحول يأتينا النظريون بالاصلاحات  
المنمقة والديسانير المزركشة مستشهدين بالعلم والفلسفة  
والتاريخ وضامنين لنا بتنفيذ قوانينهم عصراً ذهبياً يدرُّ على  
العباد لبناً وعسلاً . ولكن هذا التاريخ وهذه الفلسفة

وهذا العلم الذي يستهوون باسمه ألبابنا ويلطفون آلامنا ،  
هو الذي ينقضُ وعودهم وينكرونها . ان في « المادة  
التاريخية » التي يستند اليها ماركس وأصحابه أكبر مكذب  
لأُماني الاشتراكية لانها اذا صدقت من حيث ظهور  
المرتبة الضرورية للاجتماع على المراتب الاخرى ، فهي  
كذلك تثبت بلا إثبات وجود التغاير الملاصق للانسانية  
في جميع تطوراتها

ان تقسيم العمل ملازم لأنواع العمل ودرجة عقول  
الناس ودرجة كفاءتهم ، وهذا التقسيم المحتوم هو الذي  
يخلق المراتب المختلفة . لذلك كان هذا المذهب القائل  
بالمساواة اظلم ماحقٍ لها ، وكان هذا المذهب الداعي الى  
الانصاف أشدَّ الطغاة طغياناً . أتري المساواة في سبك  
العسجد والطين في قالب واحد ؟ وهل الانصاف في  
تجريد الغني ليعطى المعدم ؟ وهل الحرية في توحيد العقل  
الكبير والقلب النبيل مع الفكر البسيط والنفس  
الزحافة ؟ وهل يقوم حسن التوزيع باستبدالك بك

وعهد بعهد؟ وما هي لوائح «الوقت الاجتماعي» التي سيبدل كلُّ بواسطتها نتيجة عمله — ما هي إلا شكل جديد من الاوراق المالية؟ ومن هم أولئك الموزعون؟ أم ملائكة فالملائكة سقطوا. أم آلهة لتضمن لنا نراهم وعدالتهم؟ وإذا كانوا على ذلك الكمال فكيف ينظرون الى ماركوني مثلاً وإلى الخامل الذي يتطفل على الناس — بعين واحدة؟ ولو فعلوا فسوّوا بين النسر والضعفدع أفلا تكون هذه المساواة أعظم خيانة لأرقى صفات الانسان واسخف ظلم لما هو نحر الانسانية وشرفها؟

يقولون ان الشيوعية لم تنجح في روسيا لأن الشعب ليس على رقي. التاريخ وراءكم أيها الفلاسفة الكلاميون، التاريخ القاسي والوراثة القاهرة. وهل الشعب فرد واحد ليرتقي كله على نمط واحد وفي درجة واحدة؟ ولماذا لم يتطور على هذه الصورة في عصور الملكية وما تلاها؟ لأنه لم يتعلم؟ وهل كلُّ من يتعلم يعلم؟ وهل كلُّ من يدرس يحفظ؟ وهل كلُّ من يحفظ يحسن التصرف بمحفوظاته

وممتلكاته ؟ إذا ماذا تفعلون بالفروق الشخصية ؟ ماذا تفعلون بوجوه العقول ووجوه الاستعدادات ، ووجوه الملكات التي لا تقل اختلافاً عن وجوه الأجساد ؟ لماذا لستم جميعاً مثل لنين وكروبتكين وماركس ولا سال ، حتى أنتم الأذكىاء المتعلمون المخلصون ؟ وماذا تفعلون بالأجسام العلية ألساؤون بينها وبين الصحيحة ؟ وماذا تفعلون بالأعضاء البتراء أتقولون ان الفردية شوهتها ؟

إن أكبر ما تعاب به الاشتراكية المتطرفة هو نفخ الخامل والكسول والجبان وإيهامهم أنهم في الدنيا الكل في الكل . تعاب بالقضاء على تلك المكرمات الانسانية وتلك الصفات النبيلة ، صفات القناعة والنزاهة والخضوع والرقه والتهيب أمام الأشياء العظيمة الجليلة التي هي أئمن . ارث في متحف العصور ، والناداة بصلاح ما يناقضها . المخلصون من دعاة هذا المذهب ينسبون خول الخامل وكسل الكسول ، وجبن الجبان الى جهله وعدم توفر وسائل التقدم له لينهض من دركته الفكرية والاخلاقية .

وقد يصحّ ذلك في بعض الأفراد . ولكن ماذا نقول في الذين هم على هذا الانحطاط المعنوي والحسي رغم علمهم أو توفر أسباب العلم لهم ، ورغم وجاهتهم وعظمتهم الاجتماعية ؟ إن الدّلّ الاخلاقي موجودٌ بين الملوك وجودهٌ بين الصعاليك ، فما شأن المساواة في ذلك ؟ نعم . ان عيوب الاجتماع كثيرة ، نعم ان الاوجاع الحالية مريرة . ولكن الدواء سيكون أمرًا والاصلاح أوجع ، لأنه سيظلم كثيرين من الأبرياء ويقضي على جمال كثير . غير اني من الذين يثقون بالمستقبل أيًا كانت أغلاط الحاضر لأن التحوّل رائد الكون

الغد للاشتراكية بلا ريب ولكنها ستغلب على أمرها بعد أن تنيل الاجتماع ما تستطيع أن تأتي به من التعديل . الغد للاشتراكية ولكنها لن تكون أوفى من الديمقراطية في تميم عودها . الغد للاشتراكية ولكن من بين الطبقات المتساوية بالمساواة الجديدة ستنهض فئة فتعلو وتطفو على الطبقات الأخرى ، طبقة إستقرائية

المستقبل التي ستخلقها الكفاءة الشخصية وتقسيم العمل  
المحتم اليوم والأمس وفي الغد . الغد للاشتراكية ولكن  
الفردية ستظل منتصبةً قريباً على الدوام . الغد للاشتراكية ،  
ولكن ما بعد الغد لنظام آخر سوف ينبثق من قلب  
الاشتراكية التي هي مذهب انساني ، فهي بذلك خاضعة  
لطبيعة الانسان تملأها الحسنات والسيئات ويستحيل فيها  
الكمال - إلا إذا بقي لها ذلك الكمال مثلاً أعلى تتبعه  
ويظل هارباً أمامها الى منتهى الدهور .



## ٧

## الفوضوية

نشرت جريدة « التيمس » في أوائل يوليو سنة ١٩٢٠ رسالة بتوقيع كروبتكن الروسي أنكر فيها أعمال البلاشفية التي دعاها « ديكتاتورية حزبية » جازماً بفشلها. فسارعت الصحف العالمية المنبذة بالبلاشفية إلى تناقل هذه الرسالة مستعملة إياها كوسيلة لبث الدعوة ضد السوفيتية . ومعلقة عليها بما يعني ان كروبتكن الذي قضى عمره مضطهداً منفيّاً لخروجه على حكومة القيصر انفضّ عن شيوعية وطنه وأخذ يناهضها بعد أن كان نازعاً منزعاً مواطناً لها . وفي هذا التاميح من أرباب تلك الصحف أحد اثنين : فإما تضليل لمن لا يعرف وجوه الاختلاف بين المتمردين السياسيين ،

وإمّا جهل محض توحدت عنده الاشتراكية والفوضوية  
لأنه على مقربة من الثوروية الاشتراكية ثوروية  
فوضوية هي أقل من تلك شيوعاً ولكنها أشد حرارة  
وأقوى وحشية . وكلاهما انبثق من الديمقراطية شاعراً  
بألم العمال ومرجعاً أصل الشقاء إلى استبداد صاحب رأس  
المال بالمأجور . ذلك الاستبداد الذي هو ، على قولهما ،  
مبعث افتقار المجاميع في سبيل تنمُّ اقلية ظالمة جائرة .  
وكلاهما يجاهر بتعذر اصلاح هذا المجتمع القائم على الملكية  
الفردية ويقول بوجوب تقويضه وقلب النظام الحالي رأساً  
على عقب . الى هنا يتفقان ثم يظهر بينهما الخلاف في  
أساليب التقويض وفي كيفية تنظيم المجتمع المقبل .  
الاشتراكية تريد تسخير الحكومة وإرهاب رأس المال  
لتقليل ساعات العمل وتحسين حالة العامل ديثما يتم لها  
القبض على زمام الحكم ، والفوضوية تريد التثك بذوي  
المناصب لا لسبب آخر سوى أنهم ينفذون قانوناً يكرهه  
الفوضويون . الاشتراكية تعظم المجموع وكأنها لا تهتم

بالفرد إلا لأنه جزء من مجموع هو كل شيء في تقديرها ،  
والفوضوية تقولُ باستقلال الفرد استقلالاً تاماً يكادُ  
يتلاشى المجموع حياله . الاشتراكية تريد قلب النظام  
الرسمالي لتوطد مكانه نظامها الاشتراكي ، والفوضوية  
تريد قلب النظام الرسمالي وكل نظام سواه ، تريد  
الغاء كل قانون على الاطلاق أخلاقياً كان أم سياسياً  
أم اجتماعياً . هي الفوضى أي التفويض الى الفرد إدارة  
شؤونه دون مراقبة أو سيطرة . وتنظر إلى الاشتراكية  
كنوع جديد من الشككن والاديرة ودور الحكومات  
فتنازلها مثلاً تنازل الارستقراطية والديمقراطية ، ولعلها  
في نظرها أشد الأنظمة خطراً واستئثاراً . فلئن كانت  
الاشتراكية نقداً للمجتمع الحاضر فالفوضوية نقد النقد  
وهدم الهدم ، وزلزال الزلزال . فهل من عجب بعد هذا إذا  
ما استنكر كروبتكن تلك « الديكتاتورية الحزبية » وهو  
الفوضوي المقاتل كل سلطة شيوعية كانت أم قيصرية ؟

ترى أيّ المفكرين نصدّق ، أروسو الهااتف بالعودة  
الى الطبيعة لأنّ الانسان خير بطبيعته ولكن المجتمع  
أفسدهُ بأنظمتِه — أم هو بس المصرّح بان الانسان  
ذئبٌ للانسان وانه طوي على الفوضوية لايقمها ويحسن  
ضبطها فيه سوى الحكم المطلق : احسن دون سواه ؟  
إذا تحرّى الباحث أحوال العالم بلا مشايعة ولا  
تحزّب وجدّ من الناس الصالح والطالح ، الذكي والابله ،  
المسالّم والمتحامل ، الخائن والوفى ، فوجب عليه قبول كلا  
المذهبيين كتمم أحدهما للآخر . وليس هو بس بالغيبين  
ولا بالمتعسف لأنّ اللانظام سائر النظام في جميع أدوار  
التاريخ . وليست الفوضوية لانظاماً موقوتاً بل هي حنق  
وعصيان متتابع يرمي إلى نقض أركان المجتمع . فنجدها  
في اضطرابات آلت الى تغيير النظم في بلاد اليونان  
والرومان يتخللها ذلك الطور الخاص المدعو بالديماغوجيا  
أي حكومة الرعاع ، وهو في نظر أرسطو خامس أنواع

الديمقراطية <sup>(١)</sup> . ذلك الطور الموجد عهد الطغاة ( Tyrans ) وقد بدأ في بلاد اليونان خصوصاً في القرن السابع والسادس قبل المسيح . وكثيرون من أولئك الطغاة أمثال يزيستراتس وارثاغوراس وييرو وبوليكراتس كانوا أولاً زعماء الفتنة ودعاة التحريض ضد حكم الامثال أو الاقلية . ثم وصلوا الى الحكم الديكتاتوري الأعلى فكان عهدهم مقدّمة لعهد الديمقراطية المعتدلة . أما الطاغية ( باليونانية Tyrannos ) فكان في فجر التاريخ محارباً

( ١ ) الديمقراطية عند أرسطو على خمسة أنواع : فالأولى هي التسوية بين الفقراء والاغنياء مع ضبط التوازن السياسي بينهم حتى لا يدع لاستبداد هؤلاء أو أولئك مجالاً . والثانية لا يصل فيها الى المناصب العمومية الا من كان ذا ثروة ما . والثالثة يصل فيها جميع الوطنيين الى مجالس الحكم والتشريع على ان تظل السلطة العليا للقانون والنفوذ لسكاته . والرابعة ان يصل الى تلك المناصب من كان وطنياً بأى صفة من الصفات على ان يظل للقانون الحكم المطلق والسلطة العليا . والخامسة تكون فيها المناصب شائعة يرشح لها الجميع ولكن المرجع الاخير ليس الى القانون بل الى الجمهور الذي يقيم أحكامه مقام بنود القانون وله أن يغيرها ويمدّها ويأفئها ويبدّلها بسواها كيفما شاء — وهي الديماغوجيا

في الغالب يكبره الشعبُ لأنه أنقذه من غارة المهاجرين وحفظ له حرمة الوطن ، فلا يطول حتى يختاره زعيما يتكلم باسمه في مناقشة العظماء والكبراء . ثم تغيرت الحال وصار الزعماء يبلغون أعلى المراتب بفصاحتهم البيانية — موهبة ما فتئت ترفع ذويها إلى الأوج . ولدينا من ذلك في هذا العصر أمثال الدكتور ويلسن ولويد جورج وبلفور وسوائهم من فطاحل الخطابة الجليلة الشأن وظلَّ الاضطراب الديماغوجي يقلق هاتيك البلاد بدافع التنازع الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء حتى وضع له الفتح اللاتيني حداً بتأييد الممولين . لأن نظام البلديات الذي قامت به الإدارة الرومانية كان نظاماً تيمقراطياً أي أنه كان يرتب الناس وفقاً لثروتهم ، وبديهي أن يخص الفاتح ذوي اليسار بالحكم والمسؤولية . غير أن الأمة الغالبة لم تسلم من هجمات الديماغوجيا لأنها دُهمت هي أيضاً بتنافس الطبقات . فتعددت في سجلاتها أسماء الطغاة ، حتى

أن المؤرخين يعتبرون اصلاحات الاخوين الطاغيين  
 طيبيريوس وكايوس جراكس استهلالاً للدور الثوروي  
 الذي تخطى بالجمهورية الرومانية إلى الامبراطورية  
 أو القيصرية

تتالت جماعات الخوارج عند مختلف الشعوب مظهرًا  
 استياءها بصنوفٍ جمة من التمرّد والمقاومة الى أن  
 وصلت الفوضوية إلى طورها العصري . ويرى أهلها  
 في فلاسفة الفردية في القرن الثامن عشر كروسو وسواه  
 المخبرين والمبشرين . ويكادون يستخرجون شعارهم من  
 بيتين كتبهما ديدرو أحد مؤسسي الانسيكلوبيديا  
 الفرنسية ومفادهما : « لم تصنع الطبيعة من الناس الخادم  
 والمولى ، وأما لا أريد أن أسن الشرائع ولا أن تُسن لي » <sup>(١)</sup>  
 ولكن صاحب الوجه النظري من هذا  
 المذهب هو الذي يدعوهُ كروبتكن « أبا الفوضوية  
 الخالد » ، هو برودون الفرنسي الذي أنكر الملكية

La nature n'a fait ni serviteur ni maître, (A)

Je ne veux ni donner ni recevoir de lois - Diderot.

الفردية والملكية الشيوعية جميعاً ، قائلا ان الاولى هي استبداد الاقوياء بالضعفاء وان الثانية هي استبداد الضعفاء بالاقوياء . وان حكومة تقرر الملكية ايةً كانت وتحافظ عليها لحكومة لا يُطلبُ إصلاحها بل يجبُ قلبها . برودون يرمي الى هدم السلطة في جميع دوائرها وأشكالها زمنية كانت أم روحية . فلاجيوش ، ولا محاكم ، ولا إدارة ، ولا كنيسة . يريد إبدال التقوى بالعدل والتدين بحسن الاخلاق . ومتى ألغيت السلطة حلَّ محلها التعاقد الحر الاختياري فينظم المجتمع نفسه هيئات مركزية لاصحاب الحرف والفنون والصنائع ، ويرتبط بروابط معرّضة أبداً للحل والتبديل دون الخضوع لقوة غريبة . وهو يستحسن الفقر لأنه يحثُّ على العمل . وليس يرى الرقي في الهناء والرخاء المفسد بل في ما يكتسبه المرء من صفات الرجولة وما يعزّزها من استقلال ذاتي وادراك حصيف لمعاني العدل والمساواة . فيعيش الفرد عندئذٍ حراً مستقلاً فينتج حسب استعدادهِ



وليست تلك حسب إحتياجه . وكذا تسير الانسانية في سبيل  
التقدم لا تقيد بها شريعة ولا يذلها امرٌ ولا نهى  
أما نظرية « قيمة العمل » فواحدة عند برودون  
وماركس جميعاً إلا إن هذا سخر بذاك ، لأن الماركسية وإن  
خُيلت منادية بالمساواة فهي في الجوهر نظام ديكتاتوري  
له صرامة القضاء والقدر وقسوة التطور المحتوم الذي تقوم  
عليه . فتبدو أزماء الآراء البرودونية في الحرية والمساواة  
والعدل خواطر شعرية روائية شفافة تذوب كالضباب  
عند شروق الشمس

ماركس يقول بالثورة الصريحة بالامدانة ، أما  
برودون فتختلط عنده الثورة بالأصلاح ويتغلب هذا  
أحياناً ، ولا سيما عندما ينصح للعمال أن يتصافوا وأصحاب  
رأس المال . إلا أن هذا لا ينفي أن برودون ذا المواهب  
النادرة والنفس المتلظية هو الذي شوش العقول والهب  
القلوب وأطلق مسموم السهام ، وإن من فوضويته النظرية  
العالمية تولدت الفوضوية العملية المحسوسة . فوضوية سار

با كونين الروسي في سبيلها فاندفع وراءه المندفعون . كان شعار برودون « لا إله ولا سيد » فاضاف اليه با كونين « ولا عقيدة ولا شريعة »



ظهرت بوادر الفوضوية العصرية في الاترنسيونال المنعقدة مؤتمراتها بمدينة لاهاي في أواخر سنة ١٨٧٢ ، وذلك بانسحاب أحد الزعماء با كونين الذي عيَّب الاشتراكية أن تكون حكومة ذات مجلس عام له سلطة ديكتاتورية مطلقة على اللجان الفرعية . تعود اليه هذه للبت في شؤونها ، ومرجع الاحكام إلى ماركس القائم على رأس التحالف زعيما لا مردّ لقضائه . فأنحلت الاترنسيونال، وتشتت شمل الاعضاء فالأُ بعضهم الزعيم الالماني وشايع آخرون الزعيم الروسي . وكما ظلّ ماركس منطلقاً في تنعيم مشروعه انبرى با كونين ينشر دعوته . فأوجد التآلف الحرّ وانضم اليه كثيرون من مختلف البلدان وأصدروا صحيفة « الطليعة » ( Avant-Garde ) التي لم تكن

ان عطّلت . فأصدر كروبتكن بالاشتراك مع اليزه ركلو  
الفرنسوي صحيفة « المتحرّد » ذات الأثر الشديد في نشر  
الدعوة الفوضوية في أوروبا وأمريكا سنة ١٨٧٨ ، لما كان  
عليه كروبتكن من مقدرة كتابية وبلاغة مستعرة . فضلاً  
عن أنه ذو مذهب قيم في ذاته يتم عن طبيعة طويت على  
الخير وحبّ بني الانسان فكانت شديدة الثقة بالمستقبل  
كروبتكن كجميع الفوضويين يقول بالتحريض من  
النيرالاقتصادي والحكومي والديني ، وليس ذلك التحريض  
عنده حاماً من أحلام الغواية بل هو نتيجة سيفضي اليها  
اتجاه الاجتماع الحالي . أما وسيلة التحريض فهي الثورة —  
الثورة الجديدة المختلفة عن كل ثورة سبقتها . تلك لم تعد  
بلاداً شبت فيها . أما الثورة الجديدة فاذا شبت في بلد  
امتدت بسرعة الى ما يحيط به وألهمت انحاء العمران . وهو  
يؤثر الثورة على الاصلاح لان في الاصلاح قبولاً مضمراً  
لما في الذي يتعدّل بالاصلاح قليلاً أو كثيراً . بينا الثورة

تسير الى الامام سابقة لتنصب على محجة المستقبل اعلاماً .  
ولما كانت الجرائم لا تُقترف الاً ضدّ الملك ورأس المال  
( ؟ ) فبالغاء العملة تلغ النتيجة . والاخلاق الفوضوية تجمل  
الناس اذ كياء احراراً صالحين عادلين ( ؟ ) واذا بقي هناك  
اشرار يميلون الى الاذى فالطبّ يصدقك الخبر وهو القائل  
أنهم مرضى ومجانين . فبدلاً من العقوبة والسجن عاجلهم  
بالمؤاساة والاخاء ، ودع الجميع في راحةٍ واستقلال يرتفعون  
إلى آفاق معنوية مجهولة

وهكذا تطور ذلك التمرّد الذي كان عند روسو  
حنقاً على الشرائع ، وعند ماركس سخطاً على رأس المال  
لا على أهله ، فانقلب عند باكونين هتافاً بالحرية الطليقة  
مع كرهٍ للفتك ، وبدا عند كروبتين إدراكاً لطبيعة النار  
دون أن يحكم له أو عليه ، الى أن قرّر المؤتمر الفوضوي  
المنعقد في لندن سنة ٨١ شرعية كل وسيلة لآبادة النظام  
الحالي واغتيال أئمنه . ويقال أن صحيفة « الحرية » في أمريكا

كانت ترشدُ الخدم إلى كيفية تسميم مواليتهم حتى عن طريق الاحذية !

على أن الفوضوية بجميع الميول البشرية تصطبغ بصبغة الشعب الذي يقبلها . فيينا هي حادثة لجوجة في تشيكوسلافيا مثلاً وإيطاليا وإسبانيا إذا بهما هادئة مسالمة في أسوج ونروج والدانمارك . ومع أن في لندن جماعة فوضوية صغيرة كانت تصدر منذ أعوام صحيفة « الفوضوي » الاسبوعية ، ومع أن إنجلترا وسويسرا ما فتئتا كعبة الفوضويين الأجانب ينشؤون فيها الاندية وينشرون الصحف بلغات متعددة ابث الدعوة في أوطانهم — فانهما لم تقاسيا من هذا المذهب ماقاسته الدول الاخرى . ذلك لان طباع أهليهما باردة عملية تنزع خصوصاً إلى الإصلاح الاقتصادي . وليس الشيوعيون في إنجلترا بالفوضويين . والمظاهرات التي جرت هناك منذ شهور ناتجة عن كثرة العمال العاطلين الذين وفر عددهم وتفاقم خطرهم في أكثر الممالك الكبرى .

أما الفتن والاعتصابات فمتعلقة بالمسائل الاشتراكية ،  
أو راجعة إلى أسباب محلية خاصة . غير أن الفوضوية  
تتفق وطبيعة العامل الأمريكي . لذلك شاعت بين أولئك  
القوم ، واشترك أعضاؤها في عقد المؤتمرات وتهيئة  
الاعتصابات الفرعية تمهيداً للاضراب العام الشامل



ولعلها مزاج أكثر منها مذهب ، تلك الفردية  
المضخمة المثبتة نفسها بالخروج على كل شريعة ، الجاحدة  
حتى مجالس النواب لأن الشعب بالإنيابة والتمثيل إنما يقيم  
عليه موالي . « وهل يكون الثور حرّاً إذا هو اختار  
جزّاره ؟ » لجمعياتها بلا رؤساء وبلا هيئة تنفيذية ، ولا  
يجمع بين الأعضاء سوى وحدة المشرب والمطلب  
والرغبة في تداول الصحف الفوضوية ، والاحتفال حيناً  
بعد حين بأعياد « شهدائهم »

ولقد فُحص لمبروزو كثيرين من فوضويي شيكاغو  
وسواهم فرأى إن حالة الفوضويّ المجاهد حالة عجز وسقام

وما ظهوره بظهور الجسارة والمفاداة سوى من « وثبات »  
الضعفاء المهوَّرين . فمنهم المبتلون بالامراض المزمنة ، ومنهم  
ذوو العريكة الخشنة الوعرة التي يعتاص عليها التطبُّع بطبائع  
الوسط ، ومنهم ذوو الجمود الاخلاقي غير الشعارين بهمس  
الضمير وديب الوجدان ، ومنهم الجاني حياً بالجناية  
كالفوضوي الالماني موسست الذي يرى فيه لمبروزو  
المذكور أخطأ أشكال الجناة . ومنهم أهل الباطنية  
والروحانية ، وأهل الوحي والرفعة مثل باكونين  
وكروبتكن . ومنهم القدائي المقتنع بأنه انما يضحى بنفسه  
خدمة ابني الانسان

وليفسحوا مجال الدخول إلى الفردوس الموعود  
تراهم يكردسون الجثث على الجثث ويجندلون الصريع  
فوق الصريع !

ان الفوضوية مذهب محزن مروّع ، وهو على حداثة  
نشاته ذو تاريخ مضرّج بالدماء



## العدمية

العدمية ( Nihilism ) اسمٌ قديمٌ كان وما زال يُطلقُ على المذاهب الفلسفية القائلة بأن لا شيء موجود ولا شيء يمكن أن يُعلم — على نحو مذهب غورغياس اليوناني أستاذ ثوسديدس كبير المؤرخين ، ومذهب فيختي الألماني تلميذ كُنت وأستاذ شلنجر . وقد أنالها تورجنيف الروسي معنى جديداً إذ نعت بها في رواياته أشخاصاً تناولتهم الحالة الفكرية الشائعة يومئذٍ في طبقة المتعالمين الروس . وأنَّ أَلْفَ الناسُ الخاططين الفوضوية والعدمية ، والنظر اليهما سوياً كمنتهى التطارف والحدة التوروية فلأن حكومة القيصر الاوتقراطية أوجدت هذا الخطأ وأذاعته التبرير ما تأتية من ضغطٍ ومقاومة . فوحدت في أحكامها



جماعة المتنوّرين الاحرار ودعاة التهويش واللائظام  
على أن العدمية في وجهها الاولى غير الفوضوية  
وإن اشبهتها . أما وجه الشبه ففي كونهما معاً مغالاة  
في اثبات الفردية وانكاراً لكل سلطة وفيد وشريعة .  
وأما وجه الاختلاف ففي أن العدمية بدأت مسالمةً بعيد  
جلوس القيصر اسكندر الثاني سنة ١٨٥٥ وبقيت فكرية  
معنوية إلى سنة السبعين . وكان القيصر المذكور ارتقى  
العرش مجاهراً بميله إلى الاصلاح والتسوية بين رعاياه .  
فأتم له في سنوات حكمه الاولى إخراج بلاده من  
حروب اشتبكت بها مع الدول حتى تحوّل الى الاصلاح  
الرئيسي الذي طالما نادى به وهياًه ككتاب الروس  
في القرن المنصرم فجاء لوطنهم أهم حوادث التاريخ في ذلك  
القرن . وهو أن القيصر ألغى نظام الاسترقاق سنة ١٨٦١  
والثلاثون مليوناً الذين كانوا يعملون للموالي ولا أرض لهم  
ولا حرية أصبحوا مستقلين عن سادتهم . ورأى الاحرار  
في ذلك فاتحة عهد جديد فبعثت المواهب والقوى وبرزت

العقول الراجحة ، وكثُرَ عدد المفكرين وعلماء الاجتماع والاقتصاديين والشعراء والروائيين . وقاموا يحاربون ليس الاثرة السياسية بل الاثرة الادبية في جميع أنواعها ، ويحرّرون الفرد من قيود الدين وطغيان المجتمع ومزاعم الوسط ، بما فيها المزاعم الثوروية الذائعة يومذاك في أوروبا الغربية . وبعد أن هاجموا العقيدة والاصطلاح هاجموا العيلة مشعرين المرأة التي قضت حياتها أمة ، بأن جميع صنوف الحرية - ابتداء من حرية الحب - حلُّ لها



ومن أساطين هذا المذهب ومن أنبلهم غاية وأكثرهم بدعية بطرس لفروف الذي يرى أن الحوادث الاجتماعية في تطوُّرها العامي والاخلاقي والفلسفي الثلاثي انما منها ما يظل في نمو مستمر ومنها ما يقف جامداً فيتقهقر الى رجعية الانحلال والفساد . وبين ذلك النمو الحي والبقاء الميت يتعدى الماضي على المستقبل فيختل التوازن ويظهر في ذلك الطور حدث جديد هو ما يسمونه المرض الاجتماعي .

وليس لعلوم الاجتماع من غرض سوى معالجة هذا المرض  
وضبط التوازن في آلة المجتمع . ولقد كان حكماء الماضي  
يرون الخلاص بالاحتفاظ بالتقاليد ، وإذا بالاحفاد يجدون  
في ذلك العلة الكبرى اذ لا جمود في الخليقة . ولما كان  
المجتمع تابعا للطبيعة في سنة التحول تحتم عليه احداث نظم  
تلائم احتياجات معقولة هي كل يوم في ازدياد

يهدم التطورُ صوراً قديمة ويبدع صوراً جديدة على  
يد أشخاص يخلفهم التطور نفسه وقل من فهمهم في محيطهم .  
وكما تعالوا الى المثل الاعلى أفرط العامة في الاستخفاف  
بهم ودفعم عنهم لانهم « لا يشبهون جميع الناس » . على  
أن نفوذ هؤلاء الافراد وفوزهم النهائي انما يتعلق بما عندهم  
من شجاعة وإقدام واعتقاد بأن الحرية الفردية المطلقة  
يجب أن تكون دعامة المدنية الجديدة الحقة . لان  
الانسان حرٌّ . ولو كانت فكرة الحرية وهما لوجب الاخذ  
بها لانها وهمٌ ضروريٌّ للرقى

واللرقى عنده وجهان: النظري والعملى . والعمل على غير

معرفةٍ وبأل . فيجب تفهّم الرقي في معانيه كلها سواء  
أوجدت عندنا أم رأيناها حوالينا ، حتى اذا ما تشبّع  
الفكرُ منا معرفة واستنارة انضمامنا الى أقلية المجاهدين  
في اتجاه معين ضد سخافة العصر واستئثار الماضي

الفردية في هذا المذهب عظيمة أهميتها خالد أثرها .  
فالافراد أحدثوا الحاضر الذي كان بالأمس بحالٍ مستحيلًا  
وقد أصبح اليوم وقوعه عجيباً . فعلى كل ان ينهض منادياً  
بفكرته قائماً بتنفيذها بنشاط وقوة . ولتحمل بعد ذلك  
موجة القدرة التاريخية شخصيته ونتائج أعماله الى محيط  
الشخصيات والأعمال العامة فذلك لا ينفي ان اقدام الفرد  
الواحد أو احجامه إنما هو في بناء المستقبل جزء  
لا ينحلّ

ومع اعتراف لقروف بأن المشاكل الحاضرة  
موفورة التعقيد صعبة الحلّ ، وان الشرط الأعظم للإصلاح  
هو تبديل النظام الساري بنظام يرضي مطالب العمال وسواهم  
— أي أنه مع قوله بالحرية والمساواة في معناها العصري —

فهو يعلق على الوحدة العائلية أهمية كبيرة . ورغم انكاره جميع أنواع الحكم ومجاهرته بأن السيطرة الدينية ان تعود الى ما كانت عليه فهو أبعد المفكرين عن حذف الاخلاق الحميدة من الحياة الاجتماعية . بل هو يدعو كلاً إلى تثقيف نفسه واصلاحها لتكون حياته مثالا ولترى نظرياته محققة في أعماله . أمّا غرضه من تعظيم الفرد في فرديته وخبرته وعمله واستقلاله فهو تهيئة عيشة حسنة هنيئة للملايين الاشخاص الضئيلة المجهولة المؤلفة المستقبل طوعاً أو كرها . وهو لا ينفك عن مخاطبة الفرد قائلاً « جاهد لذلك المستقبل ولا تنس أن المنحدر إنما هو ذاك الذي يعترف باندحاره »

جهاد الافراد خير الانسانية دين وغاية عند لفروف . وهو وان كان عديمًا متطرفاً إلا أن مبادئه الاخلاقية ومثل حيانه الشخصية غيرت معنى العدمية التي لم تعد تعني النفي والانكار على الاطلاق بل نفي « المرض الاجتماعي »

الحاضر وإنكار « تعدّي الماضي على المستقبل » . بيد  
أنه راسخ الايمان يثق بمستقبل خير فيدعو الى تهيبته  
بصوتٍ محرّض مقنع

وأى متعلّم زكيّ في هذا العصر وفي كل عصر  
لا يكون عديمياً بعض العدمية على طريقة لقروفي ؟ أي  
مستنير يعلم أن التطور ناموس الحياة ولا يبصر الجثث  
الاصطلاحية التي ينحني انجتماع أمامها ، والزوائد الخرافية  
التي تشين الاديان ، والخلل في محاسن القوانين والشرائع ؛  
أي نفس تتألم وترى الآخرين يتألمون فلا تنهض محتجة  
سراً أو علناً ؟ ومن ذا الذي يسميه الناس عظيماً فتتناقل  
ذكره الاجيال ، إن لم يكن ذاك الذي يقضي على قديم  
ضار ويوجد جديداً نافعاً في عالم الادب أو العلم  
والتشريع والاجتماع والاختراع ؛ ولكن ما كل جديد  
بالنافع ولا كل نائر بالصائب ؛ فكم من تمرّد ليس إلا  
تطاولا ومباهاة ، وكم من معدم كالجزّار أو الجالاد

يفعل ليتقاضى الاجرة ! وكم من مدمر لا يسوقه سوى  
ما دفع ذلك الخامل إلى إحراق هيكل أفسس البديع  
يوم ولادة الاسكندر !



ولئن لم يكن جميع دعاة الثورة وأشياعها من درجة  
لقروف فإن تلك العدمية لم تكن من الروس مكبرةً  
وتعنتاً ، بل نتيجة لازمة لما قاسى الشعب من الجور  
وهضم الحقوق ، ولم تجب سنة السبعين حتى انتهى للمعدمية  
طور الفكر وابتدأ طور العمل . ذلك ان الاصلاحات  
التي وعد بها القيصر ظلّ بعضها حبراً على ورق ، ونفّذ  
البعض الآخر تنفيذاً ناقصاً جاء بآلام جديدة دون أن  
يشفي الآلام الماضية . فأخذ العدميون ينتشرون  
في المدن والقرى مختلطين بالشعب ليحيوا حياته ويطلّموا  
على احتياجاته فيبشون بينه روح الثورة بالمنشورات  
والخطب والاحاديث والتعاليم . بينما كان المنفيون اختياراً

أو إرغاماً يوصلون الى الامم صوت الشعب طالباً الانعتاق من نير الاوتقراطية . وقد انضمت النساء الى الرجال في نشر المذهب الجديد وإنهاض تلك الجماهير الكثيفة من هوة الذل المألوف والعبودية المقبولة . وتعددت مراكز التآمر في أنحاء أوروبا ، ومن أهم تلك المراكز مدينة زوريخ حيث كثرت الطالبات الروسيات الشائرات . فجاءهنّ الامر القيصري بمغادرة سويسرا والعودة إلى روسيا . فعدن يُذعن تلك الآراء المهيّجة في الداخل وكانت دعوتهنّ المتزجة بدعوة الرجال صراخاً وعويلاً يستحثّ النفوس على الكفاح لخلاص الوطن وخلاص الانسانية . فالتهمت القلوب ، واستبسلت الجماهير ، وامتدّت تلك العدوى الوطنية الى الكهول والشيوخ من ذوي الوجاهة والحيثية والمستقبل المكفول كالقضاة والضباط وسواهم

وخشي القيصر تفاقم الشرّ فأوقف تنفيذ المشروعات الاصلاحية مطلقاً يد الحكومة في الضغط والمقاومة



لقمع الهياج. فاشتدت العدمية من جهة أخرى لا سيما بتأثير  
 باكونين محرّض الفلاحين على المطالبة بإتمام الإصلاحات  
 الدستورية ، وعصيان پولونيا ، وانتشار الاشتراكية  
 في أوروبا . فاذا بالعدمية فوضوية مجازفة مستهترّة ،  
 وإرهاب دمويّ جنونيّ يناصب الكيان السياسيّ غير  
 متبصر ولا هائب في ارتكاب الجنايات ، واغتيال ذوي  
 الملكية ، والتدمير والفنك المعزّم . وقد بلغ حدّه الأقصى  
 في مقتل القيصر نفسه سنة ١٨٨١

ومرّت الايام والعدميون يُرهبون بالاغتيال والهدم  
 والتشويش ويُرهبون بالتعذيب والنفي والاعدام .  
 وبقيت الحكومة تطاردهم ذرافات ووحداً وتقضي  
 على الزعماء والرؤساء منهم ، حتى أدركوا الحقيقة القاسية  
 وهي أنهم في هذا الصراع الهائل مغلوبون . فقلّ عددهم  
 شيئاً فشيئاً ، وضعفت حدّتهم ، واختفت حركتهم  
 متوحدة والحركة الفوضوية إزاء الرأي العام  
 ولكن أيعني الاختفاء الفناء ؟ ترى ألم يبقوا

عامليز سرّاً في روسيا وفي مختلف البلدان بعد انسحابهم من ميدان الارهاب العليّ ؟ ألم يكن لهم ولو يد خفية تجهيزية في الانقلاب الاعظم الذي لم تُستجَل منه بعد العوامل الكثيرة المشتبكة ؟

منذ نصف قرن تقريباً كتب محرّض كبير من محرّضي الروس - وأعني به هرزن الذي توفي في باريس - كتب يقول ما معناه : « ان مطلب روسيا هو مطلب أوروبا بأسرها : الثورة الاجتماعية . غير ان أوروبا التي نفدت حيويتها في نهضتين عزّزت بهما تاريخها لا تعيش الآن إلاّ بعلاقتها بالماضي الذي تتعثر فيه أنى توجهت . فلن تصطلمح حتى يصلحها أحدُ بلدين . فإما ولايات أمريكا المتحدة ، واما روسيا التي دخلت حديثاً في ميدان التاريخ . والمستقبل لهذه حتماً لأنها طليقة من التقاليد ولم تنم بعد النموّ الموافق لطبيعتها . ولسوف تفتنم الفرص لاظهار ما عندها من القوى الفتية والمقدرة المدهشة فيبتدىء فيها الاصلاح والتعديل »

من ذا يعرف لهرزن هذا الرأي ولا يحسبه نبؤة  
بعد الانقلاب البلشفيكي ؟ لست لأزعم ان البلشفية  
أصلحت العالم ، ولكنها من الحول والتهديد بحيث  
قبلت أن تفاوضها وتتعاهد معها الحكومات الأخرى  
ومنها الملكية المحافظة . وكيف لا يجيئ بمثل هذه النبؤة  
من وقف على طبيعة الشعب الروسي وممكناته المتنوعة  
المكنونة ؟ أذكرُ اني حضرتُ خلال الصيف المنصرم  
في كازينو سان استفانو ، حفلة خيرية لمساعدة المهاجرين  
الروس وقد تشكّل جوقُ رجال منهم لينشدوا بلغتهم  
بعض الأناشيد القومية . من ذا يستطيع التعبير عما  
تلاذب في ذلك الانشاد من جموح وشكيمة ، وفاعلية  
وانفعال ، وغمّ وذلّ ونصر باهر ؟ من ذا يستطيع  
وصف تلك الوجوه يبدو فيها تارة الخشوع والتوسّل ،  
وطوراً العتوّ والوعيد ؟ تهبُّ من أصواتها الأعاصير  
وتنفجرُ الصيحات ، فيتزلزل المكان وتكاد تخرُّ الجدران .  
فيدربها ترنيمٌ هاديٌّ على وتيرة واحدة كلهُ حزنٌ

وتجلد وخضوع . ولا تلبث الريح الزعزعان أن تعود  
الى الصعق والعصف الشديد ممثلة هدير البحار ، وولولة  
العناصر ، ووعورة المنحدرات ، ورعب الآفاق الجوفاء .  
ولعلي أدركتُ في تلك الساعة ، بل في لحظة من تلك  
الساعة ، قوة النفس السلافية المصطنخة الصاخة —  
ولعلي فهمت في تلك اللحظة من الاضطرابات الثوروية ،  
والحدة البشفية ، والاهوال الهلستية ما لا تشرحه  
المجلدات . وقد يكون انا في تلك اللمحات السريعة  
نسبر من غور النفس ما لا نصل اليه عن طريق  
الاستقراء والتدليل



كلا ليس المتفائلون بالمغبونين ولا المتشائمون  
بالمتعسفين ، فان كل جماعة عكفت على جانب من الفطرة  
البشرية الكثيرة التناقض والتنوع . ألا ترى ان ذاك القائد  
الذي لا يأبه لمشهد الاشلاء يفنى عليه اذا شم رائحة  
الجبن . وذاك المحارب الذي اعتاد النوم على الصخور والحصى

يأرقُ اذا تاهت وريقة ورد على أنسجة فراشه الوثير.  
 وذلك المحرض الذي لا يرتوي الا بدم الابرياء يقضي  
 ضحية امرأة لعوب مثل غامبتا ولاسال وغيرهما. ومن  
 لا يذكر وقفة امبراطور ألمانيا على مرتفع ينظر الى  
 ساحة القتال في غد معركة كبيرة ، وما وقعت عيناه  
 على الخراب والفتلى حتى هطلت دموعه قائلاً « لم أرد  
 هذا : » فدعت صحف الحلفاء تلك الدموع « بدموع  
 التماسيح » . ولكنها ربما كانت دموعاً صادقة كما صدقت  
 بعدها حملات الالمان على أراضي بلجيكا وفرنسا . لان  
 التناقض في الطبيعة ولأن الحرب هي الحرب . هي  
 صورة الحياة في أشد الهيجان والحدة فالصراع صارم  
 لجوج . وان أنت نمت رحمة بعدوك سيقك هو الى  
 الفتك بك دون رحمة ولا تمهل !

اجتمعت بعد الصلح بكاهن توفر فيه الصلاح  
 والذكاء والعلم ، كان حارب على خط النار ونال المدايات  
 والالوسمة . واذا قلت له ان ما كنت أتأثر له بنوع خاص

بين أخبار الحرب هو خبر التظايع بالسلاح الابيض،  
 ابتسم وأخذ يصف لي لذة الطعن والتجريح عند ما تخرق  
 الحربة جسم العدو . وانّ من ذاق هذه اللذة مرة أو  
 مرتين لا يستطيع الامساك عن البحث عنها بهوس .  
 في المعارك غير مبال بالخطر . وزاد بما يؤيد الرأي القديم  
 وهو ان الانسان ان لم يكن له من الدين ، أو من  
 الاخلاق الفردية ، أو من القانون وازع وتمكّن من أخيه  
 فالضواري دونه فظاعة وحيلة في ابتداع أساليب  
 التعذيب . ليس للدفاع عن نفسه أو للانتقام والتشفي  
 فحسب ، بل أحياناً للذة القسوة والايلام ، أو لمجرد  
 اللهو وقتل الوقت . وان أكبر آفات الحرب المشروعة  
 في نظره هي اطلاق تلك الغريزة الوحشية في الانسان  
 وتشجيعه على إرضائها وتشديدها بمختلف صنوف التشجيع  
 ان أهل المذاهب التدميرية يريدون للجميع ما حرم  
 على الاكثرين . فهم ككل اختصاصي لا يرون من

الاشياء سوى نقطة واحدة يحسبون بها الخلاص وبدونها الهلاك . والغاية عندكم تبرر الوسطة . وقد يوجد بينهم الثوروي الفاضل المدفوع بعاطفة حب الانسانية فتكون الاحوال وحدها مسؤولة عن حداثه ، وعمما يأتيه أو يشير بأتيانه من الجرائم . لأن من الناس الصلاح لاخوفاً ولا طمعاً بل بنزوعهم الفطري إلى الصلاح نزوع الموسيقى إلى الموسيقى والشاعر إلى الشعر ، والرياضي إلى الرياضيات . ولكن أولئك أقلية صغيرة هي خيرة الدهور ، والاكثرية الساحقة تحتاج إلى قانون يلجمها ويهذبها . ان الأتانية مصدر كل عمل ولا يعقل أن ينفع المرء ويجاهد لمصلحة الآخرين دون أن يفكر في مصلحته الشخصية . وعندما يهتدي الى ذلك الموضع الحساس من حياته فكثيراً ما يجاهد لنفسه باسم الجمهور . ذلك لان الحسد يجاور الحاجة في الانسان وكما أن في قلبه جوعاً الى التودد والإعزاز وتوقاً الى أن يكون محبباً محبوباً ففيه كذلك قوة كبيرة للكره والتنافس .

افقد يتمرد ويشكو ويشور لانه مظلوم يطلب حقه . وقد يفعل أيضاً لانه خامل تلهيه الغيرة ولا يستطيع الوصول الى مرتبة من هو فوقه . فيجرب المشاغبة والنقض والحرق والتشنيع فان نال بغيته فذاك ، وإلا فقد حرم غريمه من النعمة وذاك في النفس المنتقمة سرور كبير . وحتى بين المتآمرين على الهدم ترى كلاً يشد الحبل إلى جهته .

حسن أن نعطف على التعساء وإن نتوجع للفواجع التي تمرر حياة الآخرين وحياتنا أيضاً . حسن وواجب أن نسعى كل في بابهِ لإسعاد إخواننا وتحرير أنفسنا . على شريطة أن نعرف الطبيعة البشرية ونلّم بكيفية معالجتها . إذ لا منفعة بحسن النية اذا هي قرنت بالجهل . فرض الولد وسوء أخلاقه كثيراً ماينتج عن حبّ الوالدة الجاهلة . وحبّ الدين مع التعصب أشعل المحرقات وأجرى الدماء . وحبّ الوطنية والانسانية عند روبيسير وسواه جزأ أعناق النساء والاطفال والشبان والشيوخ . فهل جنت الانسانية



والوطنيةُ العقائد من وراء ذلك رقيقاً خصبصاً ؟  
 ذلك هو الانسان . وتعاليم الاديان الكبرى السبعة  
 لم تصقل منه بعد عشرات الدهور . غير القشرة الخارجية .  
 ونظرة الى أحوال العالم ترىنا كباثر الطمع والحسد والنهب  
 والتضليل حباً بالأذى وطلباً للسيادة سواء بين الافراد  
 والافراد ، والجماعات والشعوب ، والاحزاب والدول .  
 وان كان هناك من يحب الانزواء والمسالمة بفطرته فمن  
 ذا يكفي الناس شر الناس ، من ذا يكفي العقلاء شر  
 المتطاولين إن لم يكن النظام وممثلوه ؟ أي نظام ؟ النظام  
 الاجتماعي المقارب لنظام الطبيعة . فان عنصر الحياة نفسه  
 تدفّق وانتظام معاً ، وإذا تعذّر تعريف نوع النظام  
 فهذا لا ينفي أن استبداد الفرد الواحد يؤثر على استبداد  
 الجميع بالجميع



اعترف بضعف هذا المنطق ووهن هذه الحجة إزاء

إغارات الساخطين، واعترف بضرورة الثورات أحياناً، ففي السلم لا تجرأ الافراد على العمل مهما رثت الانظمة وبليت، وبعض المشا كل الاجتماعية لا يحلُّ بغير هجمات السكواسر كما أن بعض الامراض المزمنة لا يُشفى بغير العمليات الجراحية. فعند وضع دعائم المستقبل على انقاض الماضي لا بدّ من قوة أولئك العتاة ووحشيتهم التي لا تتأثر لدموع النساء، ولا تحجل بضرب الفؤوس

تأتي الازمات فترى الامة نفسها عند هوةٍ فاغرة فينصح الحكماء والعقلاء بالرجوع الى الوراء والسير بتبصر حول حرف اللجة . ولكن المجموع يتدافع هداًداً كالبحر فيقتحم الحواجز والسدود، وتقع منه الصفوف الاولى فتملاً الهاوية ويسير الباقيون فوق الجثث . والانسانية غير ضنينة بابنائها لان قواها غير متناهية

الثورات ضرورية لجرف النظم البائدة ، الثورات ضرورية لتجديد القوى وإحياء الجرأة والاقدام . ولكن

لا تنفع غير ذلك . إن المذاهب الثورية من الاجتماع بمثابة  
الزعازع من الطبيعة والزلازل والطوفانات . ولئن كان لكل  
من هذه القوى فائدته في الخليقة رغم ما يجرُّ من خراب  
ودمار فهل يمكن أن تكون مقذوفات البركان الفوار نظاماً  
للساكنين حواليه ؟

كروبتكن : كروبتكن ! أنت الذي كنت من  
أهل الوحي والرؤيا قبل ان تصير ملك المؤتمرات  
السياسية ، وتناسيت مرتبتك لتمرّج بالشعب شاعراً بجوع  
الجائع ، ووحشة المنفي ، ويأس المحكوم عليه ، وعار  
المرأة الساقطة ! أنت الذي عرفت أبهة بلاط القيصرية<sup>(١)</sup>

(١) كان كروبتكن مثل باكونين يحمل لقب برنس ولكنه  
كان رقيقاً بشخصيته لا بلقبه . لاسيما وان ( برنسات ) الروسية  
لا يزيدون أهمية عن ( برنسات ) ايطاليا أبناء اخوة الباباوات  
أو ( امراء ) لبنان على شيوع الالقاب بينهم دون قانون شأنها في  
البلدان الاخرى . وهذا اللقب ليس أرفع من ( squire ) الانجليزية  
ولقد سأل سائل في العدد ( ٢٥٨ ) من « اللطائف المصورة » لمناسبة  
مقتل للبرنس سعيد حلیم هل أمير معرب برنس وإذا كان لقب

واكرام انجام العلمية قبل أن تُسجن في الحصن المطل  
على نهر النيفا وتهرب مجازفاً بحياتك الى حيث عشت  
فقيراً محتاجاً تبتاع قوتك بعمل يدك ! لقد أنكرت  
البشفية ، فهل قضيت راضياً عن المذاهب الفوضوية ؟  
هل ظلمت على يقينك حتى حافة القبر ؟ هل قضيت راضياً  
واثقاً بأن المستقبل لجماعتك ؟

وهان كبيران يقودان الحياة : في أحدهما بحسب  
المرء نفسه حرّاً في العبودية على شرط ان تغير اسمها  
وشكلها — وان ظلّ جوهرها ثابتاً لا يتغيّر . وفي

---

برنس خاصاً بالعائلة المالكة فكيف كان بسمارك برنساً  
والجواب أن أمير تعادل برنس دون أن تترجمها حرفياً . فان  
Princeps اللاتينية معناها الاول وهي تطلق على ابناء الملك  
الملك واحفاده فيقف اللقب عند ذرية معينة لا يعود يحمله سوى  
الولد البكر . ثم صار الملوك يهبون الالفاظ منحة ومكافأة وكذلك  
صار بسمارك برنساً . أما لفظة أمير فكانت في البدء تطلق على من  
كان عمله الامر في الجيش . وما زلنا نجد أثرها في أمير الای أوقائد  
الالای وأميرال أي قائد البحر الخ .

الآخر يعتقد المرء بصلاخ البشر الفطريّ اعتقاداً مطلقاً.  
فهل تستطيع أن تقول الآن بعد أن شفت بصيرتك  
بنور الخلود أيّ الوهمين أقلّ خطراً؟ وأنت الذي كنت  
زعيم الوهم الثاني، هل تستطيع أن تنبئنا لماذا لا نفتأ  
نؤلم بعضنا بعضاً؟ ولماذا، ما دام الناس صالِحاً،  
قضيت أنت عمرك في محاربة « الصالحين »؟

## ٩

## يتناقشون

الاشخاص

السيدة جليلة — معامة ميّ في الماضي . فطنة ،  
معتدلة الرأي

ميّ — تلميذة السيدة جليلة وكاتبة مقالات  
« المساواة »

بلاش وانتوانت — فتاتان على أحدث طرزٍ .  
رفيقتا ميّ في المدرسة تتكلمان الفرنسية دواماً

عوني — فجل السيدة جليلة اشتراكى متحمس  
وذو قلب مخلص نبيل

عارف — أديب عرف الناس وتألم فأدّت به  
المعرفة الى شيء من الجمود . واسكنه يخفى وراء مظاهر

القسوة والتهكم طبيعة حارة صادقة خيرة

الاستاذ سامي - عالم فيلسوف

سميد بك - من الوجهاء ورئيس جمعية خيرية

زكي افندي - من المتأدين، لا فكر له أوله

فكر بحجبه اعتناق كل رأي عابو وامتداح جميع

الناس على السواء

الزمان والمكان

حوالي الساعة السابعة مساء في ردهة الاستقبال

بمنزل والدي مي

السيدة جليلة ( وقد دخلت منذ هنيهة مع ولدها

عوني ، تعدل جلوسها باحثة في سرها عن كلمة تبدأ بها

الحديث شأن من يصل الى مجلس صمت فيه المتحدثون

عند مجيئه . والآخرون ينتظرون يعض الارتباك وراء

علامات التأدب ليستأنفوا الكلام . فبتسم السيدة

جليلة لميٍّ ثم تدير الطرف في الحاضرين وتقول :  
 - كانت لهجتكم عند دخولي لهجة مناقشةٍ ومجادلةٍ  
 فأَيّ المشاكل العالمية كنتم تحلُّون ؟ ( يتسم الجميع  
 الابتسامة الاجتماعية المناسبة ويتعاملون )

ميٍّ - وصلت يا سيدتي عند احتياجي الى  
 دفاعك عني . لقد كان هؤلاء السادة يحاولون أن يحلُّوا  
 بانصافٍ مشكلة التغير والتفاضل التي لا تحلُّ ، أمّا والظلم  
 حليف العدل في الانسان فكانوا يمرّنون ظلمهم عليّ  
 زكي افندي ( مسروراً باغتنام الفرصة ليتكلم )  
 أشهد الله العظيم انك أنت التي ربطتنا جميعاً

السيدة جليلة - على ذكر التغير والتفاضل  
 أقول اني قرأتُ مقالاتك عن « المساواة » بمنتهى  
 الاهتمام . وانتظر الباقي منها لأدرك النقطة المعينة  
 في فكرك ، وقد هيأت من الاستنتاج والاستدلال  
 ما هيأت لا يصلنا اليها

ميٍّ - النقطة المعينة ؟ اذا دلّ بحجتي على انّ



لدي شيئاً معيناً أقوله فقد فشلتُ حتى وفي التعبير  
 عن رغبةٍ سافقتني الى معالجة هذا الموضوع الجموح  
 سميد بك - جاهرت في كلمة التمهيد باستعراض  
 خلاصة ما تعلقه الطبيعة والتاريخ والعلم لتستخرجني  
 حكماً مجرداً من غير ما تحيز ولا اندفاع . أليس في ذلك  
 تعيين لنقطة ما ؟

مي - بل في ذلك اعلان رغبة ومعاودة اخلاص .  
 ولكن -

عوني - ولكن - ؟

مي - ولكن كم من رغبة نبديها مخلصين  
 ونحسبها معقولة مقبولة ثم تمرُّ الايام فنذكر غروراً  
 تكوَّنت منه تلك الرغبة ، وحماة لا يشفع بها الا  
 ذلك الاخلاص ؛ ( تأمل قصير ) كيف زعمتُ ان  
 استعرض خلاصة ما تعلقه الطبيعة والعلم والتاريخ ،  
 وأيُّ إله أنا ليتبين لي ذلك ؛ ( خجل ) ولكنني عوقبتُ  
 بغيري نفسه اذ اني بتوغلي في البحث ، تحذو

بي أبداً تلك الرغبة الحارة ، كنتُ أزداد شعوراً بأن ما أتمسكه من الخطوط التاريخية والعلمية والاجتماعية لن يوصلني الى شيء ( ضاحكة ) سوى الى تلقي رسائل التعنيف والتفريع من حضرات القراء الذين يريد كل منهم أن أذهب مذهبه وأخذ برأيه . ( تعود الى التأمل ) حسبتني مقبلة على موضوع لي أن أعالجه على ما أريد ، فاذا بالموضوع يعالجني قاذفاً بي من تيار الى تيار ، ومن حيرة الى حيرة ، ومن لجة الى لجة . وهأنذا أردد سؤالاً ألقيته على نفسي مراراً خلال هذا البحث : أين أنا الآن ؟ أين أنا ؟

عارف — أي انك تتساولين : أين المساواة ؟ أين أثر على خيال المساواة ؟

مي — قد يكون هذا معنى سؤالتي . قد وسعت دائرة البحث حتى ضاع فيها الخيال الذي أنشده . أو ان الدائرة التي أزعمتها وسيعه اختنق فيها الخيال لضيقها فخلق فوقها وفوقها هازئاً فلم أعد أراه وأسمع صوته

بلانش ( تتشاءب وتسأل رفيقتها بالفرنساوية : )  
 - عن أي شيء يتكلمون ؟  
 انتوانت - عن الشيء الذي كانوا يتكلمون عنه

عند مجيء السيدة جلييلة

عوني ( هادئاً في الظاهر ولكن اهتمامه يبدو  
 في نظره ولهجته ) - أريد أن تلمحي خيال المساواة ،  
 أيتها الأنسة ، أريد أن تسمعي أصواتاً تناديها  
 بلجاجة ؟ إذن اقلي باب مكتبك وانسي ما كتبت  
 عنها وما يكتبون ، ولا تكثفي بالنظر الى السابلة من  
 وراء سجوف النوافذ فماتلك الحياة الظاهرة الآ حاشية  
 بعد صفحة الحياة . اتركي كل ذلك وانزلي الى ميدان  
 الحياة السوداء حيث القلوب تدمي ، والعيون تدمع ،  
 والقوى تضيع جزافاً . امتزجي بذوي الاطمار البالية ،  
 جوعي مع الجائعين ، احتاجي مع المحتاجين ، واصغي  
 الى الشكاوي والتوسلات تنطلق من بين شفاه الفقراء  
 والمرضى والمحرومين انطلاق الدم من الكلوم البالغة .

تفحصي عقولاً تطلب من المعرفة والنور غذاءً ولكن  
البؤس أقفل في وجهها أبواب المدارس ، وحرمتها  
الكتب والفنون وجميع مشاهد الجمال والرفق التي  
أوجدها الفكر الانساني ( بشئ من التحمس ) وعندما  
ترين كل ما يتمتع به الكسالى الظالمون الذين  
احتكروا الصحة والهناء والرخاء لنفوسهم ، عندما ترين  
جهاد العمال وذكاءهم ونبل أعمالهم في الحرمان إذن  
لا تسألين « أين أنا من المساواة ؟ » بل تعلمين ان  
الطبيعة خلقتك لتكوني اشتراكية وعينتك لتوقفي  
قواك في سبيل الانسانية المرتفعة الى عظمة المطالبة  
بحقوقها

عارف ( يصفق ضاحكا ) أعد ، أعد يا عزيزي عوني ،  
ليطول إعجابي بك : أوكد لك انك بموهبتك الخطائية  
هذه المقرونة برأسك الذي يشبه بأنحنائه رأس زعماء  
الباطنية في القرون الوسطى ، تستطيع أن تكون واعظاً  
دينيًا مفلحاً يأتي بالخطب الرائعة في أتفه المواضيع الممكنة

عوني ( بخاطبه بتودة وان ضمنت لهجته لوما )  
 - أنسمي موضوع البؤساء والمظلومين والمحرومين  
 المطالبين بحقوقهم موضوعا تافها ؟

عارف ( بشيء من النهم ) ومن ثم أولئك  
 البؤساء والمظلومون والمحرومون الذين ما فتئتم تاجرون  
 باحتياجهم المزعوم ؟ من ثم أولئك الذين تحاولون إقناعنا  
 وإقناعهم بأنهم نساء وان لهم حقوقا ؟

سعيد بك - سلى أنا ، أيها الفتى ، فمركزي  
 في الهيئة الاجتماعية والوظيفة التي أشغلها في جمعيتنا  
 أراني ما لم يره الآخرون . البؤساء ، والمظلومون  
 والمحرومون هم المرضى والمعجزة الذين لا ملجأ لهم .  
 هم الأراامل واليتامى الذين لا عائل لهم . هم الآباء  
 الذين فرغت أيادهم ويونهم ولا عمل منه يرتقون .  
 آه ، لقد رأيت ما يفتّر القلوب

عوني ( ترعّبه هذه الأوصاف التي لا أثر فيها لسند  
 الاشتراكية الأعظم ) - المحرومون هم خصوصا الذين

يعملون ليل نهار ليمدروا حركة العالم . ويستغلوا موارد  
الثروة ، ويقيموا بهجة العمران فتنعم طائفة المحتكرين  
والانانيين على حسابهم

زكي أفندي ( يجذ هذا الكلام كما يجذ كل  
كلام ) - صحيح ، صحيح

عارف - لقد سمعنا هذا مراراً وتكراراً . فهل  
من جديد ؟

عوني - الحاجة واحدة لا تتغير ، والفقر قديم  
لا تنوع فيه . البؤساء والمظلومون والمحرومون هم  
البؤساء والمظلومون والمحرومون . أفهمت يا عزيزي ؟  
عارف - طبعاً فهمت . فهمت وقنعت . أنا الفاهم  
رغماً عنه ، ( يضحك ) أنا المقتنع رغماً عنه . ومن ذا  
الذي لا يقنع بهذه الحجة المفحمة ؟ ( ينقلب جاداً فجأة )  
ولكنّ الحجة لا تفلح في الاقناع وإلا أقنعتكم أن  
تدعوا الناس وشأنهم ولا تشجعوهم على الوقاحة والتطاول  
يوماً بخطبٍ رثائية وبحيل كاذبة مغلوطة يوماً

سعيد بك ( ينظر اليه من أعالي ثقته بأنه رئيس  
 جمعية تعول المحتاجين ) يظهر يا ابي ، أدامك الله راتعاً  
 في بحبوحة الهناء ، انك قضيت عمرك سعيداً رغيد  
 العيش فلم تذق أنايتك ذلّ الحاجة والجهاد كما انك لم  
 تبتهج بلذة الاحسان ومسح دموع الحزين  
 عارف ( تتجمع أفكاره على فكر واحد فيشتعل  
 وجهه وتتااق عيناه ) وكيف عرفت ذلك يا سيدي ؟  
 من يدريك اني لم يكن لي يوماً مثل سداجتكم هذه -  
 عفواً عن هذه الكلمة الجريئة ! من يدريكم اني ما  
 تحجرتُ إلا لأن الناس استغلّوا ليني حتى احمق ، وعالجوا  
 عطفي حتى الاستنزاف ؟ انكم باسم الاحسان تبتزّون  
 المال من الاقوياء النشيطين كما تبتزونه من الكسالى  
 المترفين لتعطوا الذين لا حقّ لهم به فتنسون ان  
 في ذلك تملقاً للخمول وتحييداً للمذلة ، وتنسون ان المرء  
 إذا كان له من يعوله مجاناً قلّ انكاله على نفسه  
 وفرغ عقله إلا من الانحطاط والدعوى

سعيد بك ( مشفقاً على الذين لا يفهمون ) - لو كنت أباً وكان ابنك عرياناً ، لو كنت زوجاً وكانت امرأتك جائعة ، لو كنت ابناً وكانت أمك مريضة وفقرك يحول دون الطبيب والدواء ، ولو كنت فتاة وحيدة دون أهل والدراهم حاجتها لتبتاع ضروريات العرس إذن افهمت معنى إغاثة الملهوفين

عارف ( يصنى الى هذا الكلام بانتباه وكأنه يولد فيه صوراً يتناقض أثرها في نفسه ثم يرفع رأسه يبطء ) - اني أنحني أمام الحاجة الصميمة ويأخذني الخشوع امام الالم الصادق . ومن هذه الوجهة أقدر أعمال الجمعيات الخيرية وأرى فيها تهيداً لجمعية مقبلة كبرى تحتضن الذين يلزم المجتمع باعالتهم . ولكن ( يهبط فجأة كأن سوطاً ألهبه ) ولكن ما لا أحتمله هو ان الذين لا ينجلون دنسوا بحقارتهم حتى معنى الالم العظيم ، واتخذوا كلمات الاستعطاء وأسماء اليتامى والاطفال والجائعين إعلاناً فعلاً لتموين الكسل والمعاييب . صارت



دعوى الجوع والعري مرسجاً من مراسع التمثيل وأسلوباً  
 من أساليب النصب والمضاربة . لقد رأيتُ دموعاً  
 كاذبة في العيون المتوسلة . وسمعتُ المحسن إليه يلعنُ  
 الكريم الذي أعطاه بلا حساب . وشهدتُ حوادث  
 الاحتيال تتتابع للضحك من البلهاء والتطاول عليهم .  
 رأيتُ ذلك ففهمتُ ان للمساعدة المجانية أغلاطاً فادحة  
 وان أعمال البر كثيراً ما تُنتج شراً

السيدة جليمة ( مصادقةً على ما في كلام عارف من  
 الاصابة ) - صدقت يا عارف أفندي ، فان دعوى الحاجة  
 كثيراً ما جففت قلب الكريم فسدته حتى أمام العوز  
 الاكيد ، ونكران الجليل من أفضع ما يُحتمل  
 بالانش ( تهمس لانتوانت بالفرنساوية ) - عارف  
 لطيف لا بأس به ، أعلمين ؟

انتوانت - لا بأس به لولا ان حذاءه كثير  
 اللعنان . ليس من المعقول ان حذاءً يشعّ من تلقاء  
 نفسه على هذه الصورة . ومن عيوبه انه يتكلم (محاولة

اتقان اللفظ بهكم أنيق) بلغة الحاء والحاء والعين  
 عوني - مع تقديري لخدمات الجمعيات الخيرية  
 أقول اننا في هذا العصر نأبى استماع كلمات الاحسان  
 والمحسنين . لقد ملّ الناس فضل الناس كما ملّ المتفضلون  
 التفضل . والانسانية التي تبذل حياتها في سبيل الانتاج  
 لا تمدّ يدها للاستعطاء لانها تعلم ان المسؤولية تنيلها  
 حقوقاً ، وهي بتلك الحقوق تتذرع لتعمل على توطيد  
 المساواة . لقد ذكر عارف تمثيل الالم وتعمل الاحتياج ،  
 وما الدافع اليهما سوى هذا النظام الذي يسمّن قوماً  
 ويهزل قوماً . فيعمد المحرومون الى أية الوسائل ليتمتعوا .  
 النظام القائم مبعث الشرور وخالق الكذب والغش  
 والتهجم . استبداهُ بنظام يسوّي بين الجميع تحتف  
 المعايير والمفاسد والمخازي التي لم يوجد لها سواه  
 عارف - ما سمعتك متكلماً ، يا صاحبي عوني ، الا  
 رسيخ اعتقادك بانك ولدت لتكون رئيس مدرسة  
 اكليزيكية تهّي المرسلين للوعظ والارشاد . . . إذن

كيف تفسّر النصب والاحتيايل من الغنيّ السريّ ؟ إن  
 في النظام القائم لعموباً جمة يتحتم إصلاحها . ولكني بينه  
 وبين الليمان العالميّ الشامل الذي تعدنا به الاشتراكية  
 مترددٌ . ويكاد يكون ضلعي معه . إن المساواة التي  
 تطالبونها بجلجلة وضجيج موجودة في العالم ولكن  
 العقول المتنوعة لا تدركها على نمطٍ واحد ، وهي الطبائع  
 المختلفة التي تنبذها هنا وتحضنها هناك . في مدرسة  
 واحدة تتخرج أجيال الطلبة فينبهري واحد منهم ينتقل  
 اسمه وفكره على جناح الدهور ويظل مئات رفاقه  
 بين التوسط والحمول متراوحين . هواء واحد تنشره  
 الطبيعة فيقضي على أناسٍ ويحيي أناساً . قانون واحد  
 يفسّره من المحامين مئات وألوف فيكون في يدّ الفدّ  
 براءة امرئ تألّبت لاثهامه القرائن . عوزٌ واحد يعضّ  
 الجماعة فيتشدد به العبقريّ ويسمو بينا الآخرون يظلمون  
 في هوة المذلة والشكوى . فرصة فريدة تسنح لأخوين  
 فيستفيد بها الواحد ويفيد ، ويهبط بها الآخر ويؤذي .

وتعودون بعد ذلك الى المناداة بالمساواة ؛ أما ذكرت  
 في الحكايات القديمة كيف تملأ الغرف التسع والخمسين  
 الآلات المختلفة والاسلحة والامتعة الثانوية ، ولا يوجد  
 شيء الجوهري الا في الغرفة الستين ؛ ذلك شأن  
 الناس ، اذ ليست جميع الاقفال لتخفي كنوزاً وان أخفت  
 أشياء لها أهميتها النسبية

زكي أفندى - صحيح يا ناس . كلام جميل في محله

عوني - ليست الاشتراكية مسئولة عن إيجاد النبوغ  
 في الافراد ولكن غايتها تمكين كل فرد من إنماء  
 مواهبه الطبيعية الى حدها الاقصى والتمتع بشمرة أنعابه  
 على ما يحتاج . ان شركات الاحتكار وطغيان رأس المال  
 يرهق بني الانسان ، ومزاعم الدول وتكالبها على الاستعمار  
 ضيق الحياة على السائد والمسود جميعاً جاعلاً ابداً امام  
 عيونهم شبح الحرب الهائل . وهذا المرض الفعال  
 لا يشفيه سوى عملية الاشتراكية التي تلاشي استغلال  
 الافراد والجماعات . فتتكاتف الدول والاجناس ، وتظهر

العقريات الكامنة آتية بمختلف الاختراعات  
والاكتشافات في العلوم والفنون، وتستخرج من الارض  
خيرات جديدة خير الجميع . فلا نعود نرى الاكواخ  
قرب القصور والموت جوعاً قرب البذخ والترف . إذ  
ذاك ينفذ في العالم أجمع ذلك البند النظري الذي وضعته  
الثورة الفرنسية : « خلق الناس أحراراً متساوين »

زكي افندى - وهذا أيضاً كلام جميل يأنس . . .

عارف - بل اذ ذاك يزيد التفاوت ظهوراً . . . آه

ليتك يا صديقي تنفث في شيءاً من إيمانك وقبولك لملك  
المعاني المتعاكسة المتنافرة كشيء، تقرر وقوعه . ان

الثورة لم توجد نظرية المساواة لان المساواة كانت نافذة

بين الاشراف الذين كانوا يعاملون بعضهم بعضاً كأشباه

متماثلين . ولكن ذلك البند أراد التسوية بين المراتب

امام القانون لا غير . وقد ألحقوه باستدراك خطير اذ

حرموا من تلك المساواة القانونية القصر والنساء والمجانين

والمحكوم عليهم . فيكون المتساوون والحالة هذه أقل

من نصف الامة . فأين المساواة ؟

عوني — وليس ذلك بالشئ، القليل في دولة خرجت مباشرة من دور الملكية والارستقراطية . وتلك التسوية القانونية برهان جليل على أن المساواة حلٌ للناس ، وأن لابناء الاجيال الآتية أن يتناولوها بحقوقهم وينشروها قانونية واقتصادية واجتماعية بين إخوانهم أجمعين

عارف — والحرية ؟ والعدل ؟ ماذا تفعل بالحرية والعدل اللذين هما من أقدم معاني الانسانية ؟ كيف تسوي بين العظيم والحقير ، بين العبقري الذي تقتله هذه المساواة والابله الذي تفسده ، ألا تذكر كلمة سكينه قبل موتها : « أني أفاخر بان أموت شنعاً موت الرجال » كذلك فهمت سكينه المساواة : وهم بين النساء والرجال من سكينه : وهم بين الناس من جانٍ لا عن حاجة بل لأن الجناية غريزة فيه : بل كم بين الفقراء من حكيم قنوع لا يطلب أكثر من سترة الحال : ان

جرمكم الاكبر أيها الاشتراكيون في تجاهلكم الطبيعة البشرية وحسبان الانسانية محصورة في الطبقة العاملة .  
تحسبون أنفسكم منزهين عن وراثة بني الانسان وتريدون  
بتلك المساواة الآلية أن تضمنوا القوت للجميع بكمية  
متعادلة لتقتلوا ما هو فوق القوت ، لتقتلوا التفوق عن  
طريق المباراة التي كانت وستظل دواماً الحاث الأعظم .  
ألا ان السرّ في البذرة لا في الارض التي تُحرث  
ونُهيأ ، وذكاء الناس وقوتهم نار كامنة تحتاج الى  
النضال ، تحتاج الى احتكاك الحديد والصوّان لتقدح  
شرارتها . وهل كانت تستطيع العمل ملايين الايدي  
لولا العبقرية الواحدة التي كشفت سرّاً من أسرار  
الطبيعة ؟ فكيف تريدون أن تسوّوا بين ذلك النور  
الالهي في فكر ، وبين عمل يدٍ عملاً ميكانيكياً لا إجهاد  
للعقل فيه ؟ بل كيف تزعمون أن الرخاء ينمي النبوغ  
بيننا نرى ذوي النبوغ غالباً من الفقراء ، والمعوزين ؟

عوني ( يبتسم بطيئاً ) - يفكرني، أنك تناقض نفسك ، وأنت أنت المعارض للاشتراكية من أعظم المعترفين بضرورتها

عارف - أنا أعارض الاشتراكية ؛ أني من أوّل القائلين بانصاف العمال ووجوب الإصلاح ، وان للاشتراكية المعقولة دوراً لا بدّ أن تمثله . ولكني أقول باستحالة المساواة التي لا ينتج عنها سوى الظلم والتهوؤش ، وطمع الحرية طعنة جديدة . الناس في الحياة متساهمون ، ولكنهم غير متساوين في براعة التصرف بأسهمهم . والضغط الى درجة معينة على القاصر والجاهل والشرير خيرٌ للمضغوط عليه ولحيطة جميعاً . أما الضغط على الرفيع الحرّ الكبير فحماية عليه وعلى محيطه . في العالم اليوم آلام وفواجع لا تُطاق وستؤاسى على وجه ما . ولكني أقول ان الاشتراكية لن تنجح أكثر من النظم السابقة لانها نسخة جديدة منها كما ان جميع



المعاجم الجديدة نسخ عن المعاجم القديمة . إن تنجح أكثر من النظم السابقة وستأتينا بويلات مستحدثة . ومما ينذر بتلك الولايات اختلاف زعماء الاشتراكية فيما بينهم . لأنه أياً كانت النظم والهيئات الحاكمة فما يجب الالتفات اليه في تنظيم المجتمع هو الفروق القائمة بين الناس . لا وجوه التشابه بينهم . وهل يصير الصغار أقلّ صغراً اذ انكمش الكبار الى مستواهم ؟

عوني - نحن لا ننكر أن بين الناس فروقاً وان كلاً من الناس ميسر لعمل ما . ولكننا نريد ان نقلل من من جور الطبيعة ونسهل الحياة للجميع . نريد اصلاح ظلم الصدف جهد المستطاع . نريد معالجة الامراض البشرية ما أمكن ، ونريد ادخال الجميع ميادين الرقي والنور لتنال الانسانية سعادة ما فتئت تجري وراءها منذ فجر التاريخ عارف ( يتسم مشفقاً ) - ما أقرب تحويل الارض الى سماء عند الاصغاء الى اخواننا الاشتراكين ! وما أسهل حذف المرض والانفعال والموت ! قل لي يا عوني ،

هل تلاشون من قلب الانسان الشوق الملهم الى الحب  
والكره القتال المدمر الذي لا حد له ؟

بلانش ( لانتوانت بالفرنساوية ) — ماذا يقول  
عن الحب ؟ اف ما اطول هذه الجلسة !

عارف ( متمماً دون ان يسمع كلام بلانش )  
— وهل تلاشون لذة الحرب ، والشغف بالحرب ،  
وفنون الحرب في مظاهرها المختلفة ؟ تقتلون الامل ؟  
أقتلون القنوط ؟ أفعلون كل ذلك لتأتونا بسعادتك  
الموعودة ؟ وهل من سعادة بعد محق جميع تلك  
العناصر المكوّنة كلية السعادة ... ؟

مي ( مخاطبة الفيلسوف المصني الى هذه المناقشة  
باهتمام وسكون تام ) — لماذا لا نسمعنا صوتك يا أستاذ ؟  
لماذا لا تقضي الينا ببعض ما يفيضه الوحي عليك في  
خلواتك ؟ ( يتسم الفيلسوف ابتسامة مبهمه صغيرة .  
مي تطلب بالحاح : ) قل لنا رأيك : اذكر لنا الطريق  
التي علي الانسانية ان تسير فيها لتفوز بالسعادة المنشودة

الاستاذ سامي ( يتسم ابتسامة كلها عطف ) -  
البحث عن السعادة : ربما كان هذا ضلال الانسانية  
الاكبر

مي - وكيف ذلك ؟ انك تسلبنا أملاً جميلاً ،  
يا أستاذ

الاستاذ سامي - ان للانسان حقاً في البحث  
عن الامر المستحب لاسيما اذا كان واسطة لنموه ،  
ولكن التاريخ يرينا ان الانسانية الى اليوم مريضة .  
مريضة باطماعها وأشواقها وحاجتها وطبيعتها ، ومرضاها  
هو الحياة بعينها . فتتقلب على فراش المرض بتغير  
النظم وتبدليها حاسبة بنومها على هذا الجانب الراحة  
والطمأنينة ، أو السعادة إذا شئتم . فلا تلبث دقائق او  
اعواماً حتى تشعر بالتعب كالاول فتتقلب على الجانب  
الآخر ، أي انها انما تغير النظام . وهي كذلك  
الى الابد

زكي افندي ( معجباً دهشاً ) كلام الاستاذ

استاذ الكلام : ( باسطاً ذراعيه بافتتان ) دام فضلك  
 ينبوعاً نستقي منه يا أستاذ : ( تدق يده بكتف انتوانت  
 التي تبعد مستاءة ) آه ، بردون مدموازل : كيف  
 بدرت مني هذه الاساءة ؟ ما أجمل هذا الثوب وما  
 أدق ذوقك : ( تحدث حركة بين الحاضرين فيتململون  
 للنهوض )

أنتوانت ( متثأبة ) — حقاً ان من الرجال من هم  
 بلا لطف ، كأنهم لا يشعرون بوجود السيدات والفتيات  
 معهم . ان ازور مي بعد هذه المرة الا يوم تكون  
 وحدها ، أو يوم يكون المجتمعون اقل ثقلًا وغطرفة  
 ( تنظر بدلال الى تطريز ثوبها )

بلانش ( ضاحكة ) — مع ان زكي افندي امتدح  
 جمال ثوبك وحسن ذوقك

الحركات ( ضاحكة ) — هذا لأزواجنا العظماء

والله . ( ضحك مزيج ضحكي من الجميع ) لقد قرأت

في سري الأ أزواج الأ رجلاً ذكياً حتى اننا نعلم ان

يمتدحني فعل بيلاعة وإذا اراد ان يذمني ذمّ بكياسة واناقة  
 بلاش ( وقد نهضت كما نهض الجميع للانصراف  
 واشتبك الحديث بينهم . تضحك من كلام انتوانت )  
 — ولكن لاتستطيعين ان تقولي ان هؤلاء الرجال  
 الثلاثة غير اذ كياء ؛ فلو خُيرت بينهم فمن تختارين ؟  
 الفيلسوف بأسرار عينيه وابتسامته المتمنعة ؛

انتوانت — كلاً ؛ هذا قديس لا اريد اكثر من  
 ان اشعل امامه شمعاً وأضع طاقة أزهار  
 بلاش — اذا عوني ؟ أو الآخر ؟

انتوانت — عوني ؟ هذا الذي يريد ان يُوزع  
 ما عند الواحد على جميع الناس ، كما يقولون ؟ تأملي حالي  
 اذا هجم يوماً على ثيابي وحلاي ليفرقها على نساء لم يتعبن  
 بابتئاعها ؟ تأملي حالي اذا تبرّع بثوبي الأزرق ، ثوب  
 الرقص ... لا لا ؛ هذا لا اريده

بلاش — بقي الآخر

انتوانت — هذا يقوم جذاه اللماع بيني وبينه سداً

منيعاً؟ كيف لا اهزأ برجل صغير القدمين إلى هذا الحد؟  
( تضحكان ويمزج صوتهما بالاصوات الاخرى )

عارف ( متمماً حديثه مع الفيلسوف ) — ان  
كلامك ليعبر عن كثير من افكاري يا استاذ ، واعتقد  
ان اختلاف الكائنات الحية وتغايرها شرط اساسي لكل  
نمو وكل كمال نسبي . وما هو تنازع البقاء ، ذلك المصدر  
الفياض للتنوع والثروة الحيوية ، ما هو إن لم يكن في  
تطوره اثباتاً مسنماً للاختلاف والتفاوت ؟ وظهور  
الفرد الموهوب تحريض للنوع بأسره وحث سريع لجوج  
( يختفي صوته وراء جلبة التحيات )

السيدة جليلة ( مودعة مي ) — إلى الملتقى يا ابنتي .  
مهما احتدم الجدل فمثل هذه الاجتماعات يشجذ القرائح ،  
وأحسن ما يوحيه الينا كاتب أو محدث هو أن ننتهي  
من الاصغاء أو المطالعة وفي نفسنا استفهام جديد . لقد  
سرت بهذا الاجتماع كثيراً

اتعاونت ( الى بلاش بالفرنساوية دواماً ) — هيا  
بنا مع السيدة جلييلة

عوني ( مودّعاً ) شكراً ، أيها الآنسة . واسمحي لي  
أن أردد التعبير عن ثقتي بأنك منضمة الى صفوفنا  
بحكم فطرتك ونزعتك الفكرية . بي اقتناع بأن السعادة  
النسبية ممكنة لبني الانسان . لا سيما وان فكرة الارتقاء  
والسعادة هي وليدة العصور المتأخرة بعد أن تعاونت  
الاديان والفلسفات على اقناع الانسان أنه دودة صغيرة  
تتمرغ في التراب امام وجه الخالق .. والثورة أبدع مظهر  
من مظاهر الاستياء ، وشرف المرء قائم في الاستياء من  
الراث البائد والبحث عما يفضلهُ . شرف الانسان قائم  
بانصاف الآخرين كما ينصف نفسه . والنفوس الكبيرة  
قلقة أبداً لا ترضيها غير اللانهاية

عارف ( يدفعه بكوعه دفعة خفيفة ) — وهكذا  
تبدأ بالوعظ والارشاد وتنتهي بالوعظ والارشاد . الحياة  
بحر ، ياصاح ، تتدافع فيها الامواج واللجج والانظمة

والثورات . واذا استُبقيت أنظمة أكثر من سواها  
فلائها أنفع للناس وأصاح . ولكن السعادة ليست غايتها  
ولا الكمال كعبتها . ما غاية الانسانية إلا الانسانية،  
وما كعبة الحياة إلا الحياة . أليس الامر كذلك ،  
يا أستاذ ؟

الأستاذ سامي ( بصوته الهادي ) - كما تدور الاحقاب  
تدور الانظمة ، والبقاء للذي لا يموت ولا يتغير ( يخرج  
ووراءه زكي أفندي يمتدح كل واحد بدوره )  
مي ( تودع الزائرين وتعود الى الغرفة الخالية حيث  
تتراجع أصداء الاصوات التي تكلمت هناك منذ حين .  
وبعد اطفاء الانوار تخرج إلى الشرفة تحت القبة المدلّمة .  
تسند رأسها الى الحائط وتفكر صامتة ثم تبسط يديها نحو  
الفضاء ، نحو خيالات الاشجار ، نحو أشعة النجوم ، نحو  
هدير الاصوات وهدوء السكوت وتقول بلهجة المبتهل :  
- هاأنذا وحدي أيها الليل فافهمني ما عليّ أن أدرك !  
هاأنذا مستعدة أيها الحياة ، فسيريني حيث يجب أن  
أسير !  
( الستار )



## ١٠

## رسالة عارف

إلى مي

وأنا أيضاً كالسيدة جليّة تتبعت مقالاتك عن  
 « المساواة » . فرأيتك نارة تهيم بين الانقلابات  
 العمرانية وطوراً تهين لتطقي في أحد فروع الموضوع  
 حكماً جزئياً لم يكن ليتوقع سواء قارىء أوّل فصولك  
 عن « الطبقات الاجتماعية » . بل لا يتوقع سواء ذو  
 عينين تبصران ولُبٍّ يعقل

خططت العنوان وأدرت الطرف في ما حولك  
 فشاهدت تعدد الموجودات وتمايز الانام فنقلت فسرّاً  
 تلك الصورة المتجددة في البرية - صبرة التطور من  
 أدنى الكائنات إلى أرقاها، وخضوع الوحدات الصغيرة

للوحدات الكبيرة، ووجوب الفناء لإستمرار البقاء وهو  
الغاية المثلث التي تضحل في سبيلها الصور والأجال  
كذلك قرأت باهتمام تدوين مناقشتنا الأخيرة منتظراً  
منك الحكم النهائي. وقد ذكرت أنك شككت من قواك  
«هيئة محلفين» ولكن نسيت أن مثل تلك الهيئة  
لا تنهي القضايا على الوجه الذي اخترت وإنما عليها أن تهـي  
حكماً ما، للدائرة العليا نقضه أو إبرامه

بيد أنني أفهم أن الأبحاث التاريخية والمواقف الأدبية  
هي غير المحاكم والقضاء، وأفهم كل الفهم معنى ابتهاك  
الليل والحياة. ولكم ناديت الليل واستغثت بالحياة عند  
التباس المسالك واشتداد الخطوب! ولكم أحبطني العي  
والقنوط عندما جاءت الوقائع تكذب ما أنا في حرارة  
إخلاصى عضدته وعززته! فعقب فشل آمالي الشك الاليم  
وصرت أود سحق الخادعة والرياء سحقاً. أما التحمس  
الصادق فله مني مزيج اعتبار وشفقة. لذلك أقدر تحمس  
عوني وأشفق عليه جميعاً — وإن حاولت إخفاء مشاعري

وراء نبرات التهمك والمناوشة

لقد تألم صديقي شديداً ، وكيف لا يتألم في محيطنا  
الإناني من كان له من عوني رقة العواطف ونبل الفكر  
وسمو الميول ؛ غير أن الله ناقص لأنه جاءه من فئة واحدة  
من الناس : فئة العظماء والاغنياء والاشرف . فتخيل  
أن الرذيلة تحصنت في القصور وأن الفضيلة استوطنت  
الأكواخ . وحسب السعادة حيث الرغد ، والتعاسة  
حيث الشظف ؛ ولم يفهم الحرمان بغير معناه الظاهر .  
ومن هنا مبعث خطاه وتحمسه معاً

وكنت في البدء مثله هو وجماعته إرى الحاجة كل  
الحاجة في فراغ اليد فأنادي بالمساعدة دون حساب ،  
وأتمنى أن يكون لحي للجائع قوتاً ودمي للظالم شراباً .  
والخلل حولي كنت أظنه خلافاً في فقط . وزعمت جميع  
النفوس من درجة واحدة فمضيت أجاهد لأعلامها إلى  
أوج قطنته تلك النفوس القليلة التي وضعتها الحياة  
على طريقي فأثار النبل منها احترامي وأعجابي

شبتُ فاذا بي مخطيءٌ ، وان ما فيَّ من خلل منشأهُ  
الطبيعة البشرية المتوازنة أجزاؤها نقصاً وكلاً . ورأيت  
أن أنانيةً تسربتْ بالحرير ليست باطمع من أنانية  
ارتدت الاطمار ، وان كبرياء بدت في التشامخ والصمت  
والتأله ليست بأكره من كبرياء توارت في التذلل  
والتوسل والنحيب . وتبينتُ في كل مرتبةٍ اثره وتحيزاً  
واستعداداً قصياً للجور والطغيان ، بل تبينت ذلك في كل  
فردٍ من أفراد المرتبة الواحدة والاسرة الواحدة . وعلمت  
أن بعض العقول قفرٌ ، وبعض القلوب صخر ، وبعض  
النفوس رموز حية لليأس والنكد ، وبعض الصور  
البشرية انعكاسٌ لتمثال الشقاء الدائم . وأدركت للحرمان  
معاني جمة

لقد تيسرت معالجة العوز المادي فتنظمت الجمعيات  
الخيرية تطعم الجياع ، وتكسو العراة ، وتعلم أبناء الفقراء .  
وها جمعيات التعاون تحرّر العامل من تحكُّم صاحب  
رأس المال - أعني أن الادوار تبدلت وأن التحكم صار

الآن للعامل . ولكن أي جمعية وأي شيوعية ترغب  
 الطبيعة على بسط يدها ان منعت ، وتغير نظامها ان جارت ؟  
 هاك زهرة نضرة في حقل الشوك والعليق ، فما ذنبها ؟  
 هاك شجرة فريدة وسط الصحراء ، فلماذا تشقى ؟ كل  
 يرحم من قضى جوعاً ولكن من ذا يرحم قلباً جائعاً إلى  
 الحب العظيم ، وفكراً ليس له من يفهمه ويقدره .  
 ونفساً طويت على الحنان وبذل الذات ترقب مجيء من  
 تسعد بالتضحية لاجله فلا يجيء ، كأن نهر الأعمار جرفه  
 في تيار قديم ؟ أي تفرط لمن صانع فلم يكافأ بغير التهجم  
 ونكران الجميل ؟ أي تماسة لمن لا يؤذي الناس متعمداً  
 فيحرم الصحة مثلاً ، أو النظر ، أو النطق ، أو يسلب  
 عزيزاً ؟ وذاك الوالد الصالح الرصين ، لماذا ابتلي بولد  
 مستهتر أبله ؟ وذاك الثري المحسن لماذا يحرم هو وزوجته  
 نسلاً قد يحسنان تنشئته بينا ذلك السافل الشرير  
 يستعمل أسماء أبنائه آلة للاحتيال وارضاء الاهواء ؟  
 هذه حرمانات قليلة من حرمانات عديدة خرساء

لا اسم لها . ولقد قال بركليس زعيم الديمقراطية اليونانية  
 « عندنا لا ينجبل أحد بفقره ، وإنما ينجبل إذا هو لم يكافح  
 الفقر بالنشاط والعمل » . فإذا تيسرت معالجة الفقر ، ولو  
 معالجة نسبية ، بالنشاط والعمل ، فكيف تُعالج حاجات  
 أخرى ليس لموهبة أو صفة . هما شرفت وسمت ، أن  
 تتغلب عليهما ؟ وما هذا النظام الذي يزعمون فيه الانصاف  
 والمساواة . وهو لا يتناول سوى الظاهر الممكن تعديله  
 بلا سلب ولا فك - في حين تظل جميع الحرمانات  
 الأخرى تنشب في القلب أظفارها ؟

قد تقوإن الآن أن اليأس من شفاء المرض الواحد  
 لا يبرّر إهمال المرض الآخر ، وهذا صحيح . وقد  
 قولين ما ينسبه إليّ بعض اصحابي الاشتراكيين ، وهو  
 إني أرسقراطي النزعة وإن أحكاني العامة تقوم على  
 اعتبارات خاصة . أمّا إني إني إحكمي على مشاهدات  
 شخصية فأسلم به ، وأود أن أسأل كل ذي رأي ، بل

أودُّ أن أسأل الذين سنّوا الشرائع والانظمة . وكوّنوا  
الجمعيات والاحزاب ، وأحدثوا الثورات والاصلاحات —  
أود ان أسألهم هل يمكن الاقتناع بغير الاختبار الشخصي  
وهل يكون اليقين يقيناً إن لم يُبنَ على اقتناع فردي ؟  
وأما أرستقراطي المزعومة فينقضها اني أكادُ أرى  
رأي ذلك الكاتب الامريكاني الذي اثبت بالادلة التاريخية  
أن أكثر رؤساء الولايات المتحدة ورؤساء الجامعات  
في هاتيك البلاد ، ومديري المصارف والشركات ، وزعماء  
الاحزاب — ان أكثرهم ينتسبون الى شرلمان ملك  
الفرنسيس . وأقول معه أن الشعوب المختلفة لو عادت  
مئات السنين الى الوراء لوجدت جدوداً واحدةً وسلفاً  
واحداً . فنكون جميعاً أبناء ملوكٍ ، وان تاهت منا الاسماء  
خلال تشعب الانساب . ومع تسليمي بصدق الوراثة  
على قياس خمسين في المائة تقريباً ، فاني اذكر كذلك  
الامتيازات الفردية التي لم تجعل الامبراطور ماركس  
أوريليس النطونيوس أعظم من أخيه في الرواقية والنبالة

الاخلاقية : العبد ابكتس . واذكر ان أمونيوس  
 ساكس مؤسس الافلاطونية الجديدة التي ربما كانت  
 أكبر مدرسة فلسفية عرفها التاريخ - كان حملاً . وان  
 فاراداي أحد أعظم العلماء المكتشفين كان ابن معدمين  
 وحصل قوته أعواماً طويلاً من بيع الصحف ، عارياً  
 القدمين في شوارع لندن . وهلمّ جرّاً  
 لقد تأملتُ في حياتي لامور كثيرة ومن مختلف  
 المراتب ، وتأملتُ من مجموع الوارثات المتجمعة فيّ التي  
 اسميها « نفسي » . وأعرف من جهة ظم المجتمع ، وظلم  
 الحياة من جهة أخرى . واني لمن الصائحين عالياً بالنورة  
 على كثير من الانظمة والعادات والاصطلاحات كما اني  
 من الصائحين عالياً بوجوب الامتثال لأنظمة أخرى وقبول  
 عادات واصطلاحات موافقة في تقديري . أعرف الحياة  
 صالحة محسنة جميلة من الجانب الواحد ، وخادعة غادرة  
 قبيحة من الجانب الآخر . إلاّ اني « زردشتي » من  
 حيث إيماني بان الغلبة النهائية للخير والصلاح والجمال . ولو



أردتُ أن أعرف الحزب السياسي أو الاجتماعي الذي  
أنتمي إليه ، فقلت اني اريستقراطي - ديمقراطي -  
اشتراكي سامي - اشتراكي ثوردي - فوضوي -  
عدي - الى آخره . كل ذلك دفعة واحدة  
وبوقت واحد . واذا خطر لك أن تضحكي ذكرتك  
برينان الذي كتب يوماً آتوني بصفحة لأحد كتابنا  
فأبرهن لكم انه في السطور العشرة الاولى ذو نزعة تختلف  
عن نزعته في السطور العشرة التالية ، كما تختلف هذه عن  
السطور الاخرى . وما ذلك إلا لأن جميع النزعات  
موجودة في كل منا وان تغلبت احداها على الاخرى .  
وهذا التغلب وحده هو الذي يبرز منوعاً في مختلف الافراد  
فيسم الواحد منا بوسمه ، ويضع له العنوان الذي يُعرف به  
لو كنت ذا كلمة مسموعة بين حكومات العالم جعلتها  
تعرض عن اصطخاب الاحزاب التي خلق كل منها نفسه  
بياناً ذا الفاظ يتمثل فيها قرع النواقر ، ودوي المدافع ،  
وخفوق الاعلام ، وتنضيد الاعلانات ، وحفر الخنادق ،

وحركات الهجوم والدفع . كلهم يشكون الظلم وكلهم  
ظالمون . كلهم ينادون بسقوط الجاني وكلهم جانون . لكن  
أوائك الظالمين الجانين مظلومون أيضاً بحكم الوراثة  
والاحوال والقدر . فهم لم يخلقوا أنفسهم مختارين بل  
خلقتهم حوادث دهرية لم يكن لهم فيها يد ولها فيهم كل  
النفوذ . ولقد طال جهاد الانسانية للتحرر من ظلم ما  
ورثت من غرائز غير مدركة كما تطلب التحرر من  
طفيان الطبيعة ، واستبداد الاقوياء ، وبطش السلطات ،  
وسفالة الجبناء ، وحسد الخاملين . فصرنا اليوم في عصر  
الكلام الرنان تتلاطم فيه ألفاظ « الشرف والعظمة  
والحرية والاستقلال والمروءة والاحسان والتعاون »  
وانما هي الفاظ فارغة قلما فكر مرسلوها في  
معانيها . كلنا نطالب « بحقوقنا » وليس منا المهتم  
بتأدية واجبات تُشْرِى بها الحقوق . ولعلنا حيال الثورة  
على رأس المسال نحتاج الى ثورة على الدعوى والغرور .  
ثورة حصيفة — اذا جاز نعت الثورة بالحصافة —

تحدد الكفاءات . وتقسم العمل . وتعترف الواجبات  
وتضع الناس في مراكزهم لا عن تحيز لامتيازات  
الوراثة ، ولا تملأاً للمال أو مراعاة لآراء الاكثرية ،  
بل وفقاً للكفاءة الطبيعية الملزم المجتمع باتمامها  
وتعهداتها والاستفادة منها عند جميع أعضائه

قلت اني لو كنت ذا كلمة مسموعة لسننت القوانين  
الآتية واحكمت تنفيذها قبل اصلاح الشوارع ، وانشاء  
المعارض ، وبناء المتاحف ، واقامة الاحتفالات ، ونصب  
النماثيل - وهي :

أولاً - ايجاد مطاعم عمومية ومنازل للمبيت . فعار  
على المدينة ان يموت فيها أفراد من الجوع والبرد ، وعار  
أشد أن يستعطوا قوتهم ويناموا على قارعة الطريق ،  
أو أن يعمدوا إلى السرقة والنصب والتهجم على المثقلين  
بأالة نفوسهم واتمام أعمالهم العسيرة . ويجب ضبط  
النظام في تلك المطاعم لمنع الاحتيال . لان الاستعطاء ليس  
دواماً حاجة غذائية بل كثيراً ما يكون فطرة وغريزة

ثانياً — منع التسوُّل بَتَانًا . فالصالحون للعمل يجب أن يعملوا للحصول على قوتهم . وأما الآخرون المرضى والمعجزة وذوو العاهات الجسمية فيأوون الى الملاجيء القائمة على نفقة الحكومة أو المجتمع

ثالثاً — جعل التعليم الاوليّ مجانيّاً ، على أن لا يكون متماثلاً للجميع ، بل يتعلَّم كلٌّ وفقاً لاستعداده ما يحتاج اليه وينفعه في عمله . فتاجر الاثاث لا يحتاج الى النظريات الفلسفية ، وصانع الاحذية لا يحتاج الى الهندسة الزراعية ، والمهندس لا يحتاج الى قرض الشعر . وطبيعيّ ان لكلّ أن يتوسع بعدئذٍ في ما يميل اليه من المعارف الكمالية — على نفقته الخاصة

رابعاً — ايجاد مكاتب عمومية تُمتَحَن فيها الكفاءات وتوزع فيها الوظائف والاعمال حسب الاستعداد . فمن الظلم الفادح أن يطلب المرء عملاً به يفيد ويستفيد فيرى جميع الابواب مقفلة في وجهه . إذن

لا يعود الكسالى يتذرعون بأحدى تلك الحجج  
المكذوبة « لا أجد عملاً »

خامساً — إيجاد معاهد كبيرة يأوي إليها من الابناء  
من شاء، أو من كان شقيماً بين والديه فيضطرب بينهما  
فكره . أو تعطل صحته ، أو ينقص عيشه أو — ما هو  
أخطر من هذه جميعاً — يفقد صفاته الحسنة وتلاشى  
نزعاته الطيبة . فتد وُجد الطلاق بحق ليفصل بين  
المتزوجين الذين ليسوا على وفاق ويرى بهم . ولكن  
كيف يعيش الابن الشقي بين أبويه ؟ ولمن يشكو  
همه ؟ وماذا يقول ؟

سادساً — أن تكون عيادة الاطباء والصيديات  
والمستشفيات والمريض مجانية للجميع على نفقة  
الحكومة أو المجتمع . فمن العار أن يموت أناس لانهم  
ليس عندهم أجرة الطبيب ، وثمن العلاج ، أو نفقات  
العمالة الجراحية والمستشفى . كذلك يكون نقل الموتى  
والدفن مجاناً ومتشابهاً للجميع . فان الابهة في

الجنائزات من الامور المسرحية التي تشوّه هيبة الموت .  
فما دام الناس متساوين في تسليم النفس الاخير فليكن  
دفعهم مظهراً للمساواة لا مجلى لفروق المراتب في تلك  
المركبات المنمرة « بريمو » و « سكوندو » و « ترسو »  
سابعاً — نفقات المرافعات والدفاع والقضايا المختلفة  
تكون على الحكومة أو المجتمع . وفي ذلك فضلاً عن  
المنافع الجمة ، رادع عن الرشوة في بلاد تستعمل فيها  
الرشوة ، ورادع لجشع بعض المحامين الواسعي الضمير  
ثامناً — أن يفرق في السجون بين المساجين  
حسب مراتبهم وأخلاقهم . فإن الثمرة الصالحة لا تعدي  
الثمرّة الفاسدة ولكن فساد الثمرة الواحدة يتدّ الى مئات  
الاثمار الصالحة . ولما كان الغرض من السجن كفّ أذى  
الجاني عن المجتمع كان من الظلم أن يكون السجن مفسدة  
للجاني . فلا يجوز أن تمنع عنه الكتب والصحف وما يطلبه  
من وسائل التثقيف سواء في العلم والفن والمهنة . ويجب ان  
يشترى طعامه ولباسه بعمله في السجن شأنه في المجتمع ،

وَأَلَّا يُحَقَّرَ وَيَذَلَّ ، بل يكون هناك في خلوة فيها يشعر  
بأنه أخطأ دون أن يرى في النوع الانساني بأسره عدواً  
وجلاداً . لئلا تنقلب قوى نفسه خوفاً ، وكرهاً ، ومراة ،  
ورغبة في الفتك والانتقام .

تاسعاً — يقولون أن العضو الفاسد في المجتمع  
يُقطع — نعم على شريطة أن يصيب الطبيب في الحكم  
بالفساد — لا ان يعود يُبرأ المسكين بعد تنفيذ الاعدام  
فيه كما وقع في بلاد كثيرة . ثم فليُجرَّد الاعدام من مظاهر  
القسوة التابعة له : كإيقاظ المحكوم عليه من رقاده الاخير  
لان ساعة التنفيذ دنت ، وإلباسه تلك البذلة القرمزية ،  
وإحاطته بجميع تلك الامور الرهيبة ، وتلاوة الحكم عليه  
في آخر لحظة من حياته فلا يرى حوله إلا وجوهاً صارمة ،  
ولا يلمس إلا اليد الفاتكة . كل ذلك لم ينفع إلى الآن في  
ردع أحد ، لاسيما وان تلك الرهبة لا يراها سوى  
المحكوم عليه . فليكن الاعدام إذن بالكهرباء ، أو بطريقة  
سريعة جداً تقضي على الجاني بلحظة دون ان ينتظر

وقوعها دقيقة بعد أخرى ويوماً بعد يوم . هذا بعد  
الإبلاغِ بالحكم بمدة كافية ليهيئ نفسه للموت ولتعيد المحكمة  
نظرها في القضية فتكون على ثقة من صلاحية الحكم  
أما المبالغ الضرورية للقيام بالنفقات المذكورة  
في الاقتراحات الأولى فيؤتى بها من ضرائب سنوية  
تفرضها الحكومة باعتبار الثروات . وكلُّ يؤدي الضريبة  
راضياً إذا ضمننت له ما قد يبذل المبالغ الطائلة عند  
الحاجة اليه .

\*  
\* \*

لا أزعج ان فكري تمّ نضوجه ، بل ارجو ان  
يظلّ قابلاً للرقى والتطور طول حياتي . ولكن لا  
أشك في ان هذه الاصلاحات ستمّ في المجتمع عاجلاً أو  
آجلاً ، على وجهٍ ما . لاني شاعر بأن لاغنى عنها وان أهملها  
جرم متجدد مع الايام . المجتمع ينيل الفرد حياة لم يطلبها  
هو ، فعلى المجتمع اذن ان يهيئ للفرد امكانية هذه  
الحياة حسياً واجتماعياً ومعنوياً . ثم فليفتح له ميدان المسابقة



لتبرز بها ملكاته ومواهبه . واعتقد ان الاحسان الى  
الناس لا يقوم باعطائهم مالاً وقوتاً وثواباً يتمتعون بها  
بلا تعب ، فيحسبون الحصول عليها من حقوقهم . بل  
الاحسان اليهم هو في فتح عيونهم على المقدرة الكامنة  
فيهم ، وتنبيههم الى وجوب تبادل الحقوق والواجبات ،  
وإفهامهم ان الذي لا يؤدي واجباً فلا حق له .

بين الاستاذ سامي الذي يذكر السعادة وصديقي  
عوني الذي يرى كل السعادة في حذف رأس المال  
ومحو الفروق بين المراتب ، اقف انا قائلاً بان هناك  
سعادة ممكنة . فقد سعدت في حياتي أياماً واسابيع ،  
وكل الناس عرفوا طعم السعادة وطعم الشقاء . ولعل  
السعادة والشقاء مزاج أكثر منهما حالة نفسية . فمن  
البشر من خلق سعيدهاً أو تعسفاً كما ان منهم الباسم  
والعابس ، الشره والقانع ، البدين والهزيل . ولكن  
يتحتم ان يؤدي المجتمع كل ما يمكنه ان يؤديه  
لاعضائه ، وهو الى الآن غير فاعل . المجتمع أيضاً

يطالب بحقوق كثيرة ويؤدي واجبات قليلة . فلا غرو  
ان يحذو اعضاءه حذوه

هالنداء وقعت في ما اتهمت الاحزاب به وخلقت في  
لغة مسهبة لا قول شيئاً قليلاً . ثم ما منفعة اقتراحاتي على  
اهميتها وجاقتها : في هذا الزمن العصيب ؟ ان الارض  
لترجح تحت اقدامنا والهواء يحمل الينا ما قد يكون  
لهيباً ودخاناً لحريق سحيق . فالنظم الاجتماعية تتطور  
ككل شيء حيوي - كما قلت في مقالتي وكما  
هو الواقع - فلننتظر إذن ما هو كائن لاني ارى  
الانسانية الآن كلافى تغير ثوبها . اراءنا كلجوا يتعاقب  
فيه السكون والزواجع ، الصفاء والغيوم ، النجوم  
والامطار . كفانا ان نرقب سير الحوادث متكئين على  
نفوسنا ، محدقين في وجه الحياة بلا وجل ، مستعدين  
لتبيين الصلاح والحقيقة . ونحن ابدأ كالارض امنا التي  
تقبل البذور الصالحة ثم ترسلها غلة وخيراً ، واذا هوت

عليها الاشجار اليابسة تجمدت في حضنها مادة للنار  
واللهيب . ولنكن ابدًا مطلقين هذا الهتاف الجامع  
بين الاخلاص والحيرة ، بين الزفير والابتهاال :  
هاأنذا وحدي ، أيها الليل ، فعلمني مايجب ان اعلم :  
هاانذا مستعد ، أيها الحياة ، فسيرني حيث يجب  
ان أسير !

عارف

( صورة طبق الاصل )

# فهرست

صفحة

١	تمهيد
٧	الطبقات الاجتماعية
٢١	الارستقراطية
٤٢	العبودية والرق
٦٥	الديمقراطية
٩٥	الاشتراكية السامية
١٠٧	الاشتراكية الثورية
١٢٤	الموضوية
١٣٩	العدمية
١٦١	يتماقشون
١٨٨	رسالة عارف